الطريق الى أمستردام
رواية
ذياب فهد الطائي

الطريق الى أمستردام

رواية

ذياب فهد الطائي

الفصل الأول

أرا قب الشارع من شرفة الشقة في الطابق الأول ،تمر امرأة تبدو واثقة، خطواتها متوازنة ،ولكن عيناها تدوران بطريقة فيها فضول وتوقع ،أعتقد انها يمكن أن ترى كل من على التقاطع الرباعي حيث تضطر السيارات التخفيف من السرعة فيما يعبر المشاة بهدوء يبدو لي مبالغا فيه ،طفل يترك يد أمه ليقطف زهرة صفراء ،كنت أرقب عابري التقاطع ...أتفرس في وجوههم وأدرس خطواتهم وأخمن ما يفكرون به ،منتظرا أن يحمل النهار الجديد أمرا ما ،في الأيام الماطرة لا أتبين سحنات المارة عدا الذين يسرعون الخطى على الرصيف المجاور للشقة ، فيما مجموعة من النوارس تشكل مهرجانا للفرح وهي تتقاطع في طيرانها فوق المناطق الخضراء في التقاطع الرباعي ، وتندفع أحينا الى النهر الصغير الممتد على طول الشارع الشمالي للتقاطع تعابث الوز العراقي العائم بترف وهو يتلقى قطرات المطر ،المارة والطيور والخضرة المطرزة بنباتات وورود زرقاء وصفراء ، يمكن أن يشكل أي منها حكاية ،يترك نورس مجموعته ويلاحق دجاجة سوداء مذعورة تطير على امتداد النهر وتختفي عن المساحة المفتوحة امام الشرفة ،كان النورس المدفوع بروح المعابثة يعود ليستقر على الشجرة في الجانب الاخر.

في الشتاء ،يعبر السماء قمر بسحنة متشنجة رغم استدارته المشعة بلون يوحي ببرودة تدفعني الى اسدال الستائر والعودة الى جو الغرفة الدافئ.

هنا تتداخل الفصول وتتابع الأيام الشتوية ،لا تحمل فوارق جدية ،لن يكون هناك فرق إن كانت ميلادية ام هجرية وحتى صينية ،تمطر أولا عبر رياح عاصفة محدثة ضوضاء صاخبة ،في الفضاء المليء بزحمة المطر والبرد والريح ، تختفي الطيور ، وعلى الأرض ليس غير السيارات المسرعة .

يتغير فجأة كل شيء وتتكشف السماء عن زرقة لامعة تتبدى فيها رغبة لأن تبتسم ،الشوارع مبللة والاشجار تقف بوقار ،يبدو الوجود الثابت في الخارج كانه من عمق الذكريات الاكثر لمعانا ،تفاصيل بحدود لا تترك أية فرصة لأن يتماهى أي جزء في المجاور له ،وفي الداخل يشكل الصمت الأخرس عالما ضبابيا تكون الفرصة مواتية ليتماهى كل شيء في بعضه ،وتشكل العتمة وجودا اخر بلا حدود.

حينما كنت طفلا ،كان الظلام الساكن معي في غرفتي الصغيرة ، والذي يلف سريري بستائر من الستان الرقيق ،يبعث فيّ مشاعر مختلطة وأحس أني أملك مطلق حريتي،أغمض عيني وأرحل الى عوالم مدهشة بألوان غاية في البهاء، توقفت عند قرية لم يكن احد فيها يتكلم ، كانوا يتفاهمون بإشارات بطيئة بحركات العينين ، سألت رجلا كان يحدق نحوي بفضول :أين أنا ؟ فغر فاه مستغربا، جرى يعلم الجميع ...بدأت اشعر بشيء من الخوف ....أمسكت امرأة بكفي الذي تكور وقادتني الى بهو بألوان ساحرة ،الفراش الذي أثث البهو مصنوع من خيوط صوفية حمراء وبيضاء وزرقاء ،كانت الحياكة تكشف مهارة في تنسيق الألوان، أشار شيخ كبير الى كرسي مرتفع يتطلب الصعود إلية ارتقاء ثلاث درجات من المرمر الأبيض ،صعدت الى الكرسي بمعاونة المرأة ،دخل مجموعة من الأشخاص اصطفوا وقوفا على الجانب الأيمن ،على الجانب الأيسر كان أطفال بملابس ملونة أشبه بملابس جماعة السيرك الروسي الذي شاهدته قبل عام ،وقف الشيخ الذي كان يتوكأ على عصا فصمت الجميع ،أخرج من كيس أحمر من ذات الصوف الذي صنع منه الفراش ،تاجا فضيا وفي الوسط حجرا بني اللون تتكسر فيه الاشعة القادمة من الخارج وتنعكس متلألأ بعدة ألوان أخّاذة.

كانت أمي تسألني في الصباح :كيف هي أحلامك ؟

وأجيبها :غدا سأخبرك بعد أن أعود الى المملكة

تضحك أمي وتقول :حتى تحافظ على مملكتك تفوق في دراستك

واقول :بل سأنام مبكرا

نظرت إمي إلي ....كانت نظرة حائرة ومتسائلة :كلنا نحلم ولكنك تصنع أحلامك، حين كبرت ،كانت أحلامي متداخلة على نحو من الصعب وضعها بسياق منطقي فهي تجمع اضدادا وتقفز من موقف الى آخر و انصب اهتمامي أن أكون قاضيا.

ينفلت طفل من يد أمه وينحني ليقطف زهرة صفراء ، تزجره الأم ولكنه يقدم الوردة لها ، تأخذها وتحدثه بهدوء عن خطأ ما فعله ,ينكس رأسه غير مقتنع ويعاود مسك يدها.

أجلس في الشرفة منذ اسبوعين و أجد في ذلك تسلية تشغلني ، منذ شهرين ، كنت أمر بحالة بالغة الصعوبة بعد عودتي من العراق بدون صفية....كنا في(ارنهم) ولأيام طويلة نقطع الجسر مشيا بعد أن نجلس على مصطبة خشبية نتأمله ، في المرة الأولى تحدثنا كثيرا عن ما يمكن تصوره أثناء المعارك الشرسة بين القوات البريطانية وحلفائها من قوات المقاومة الهولندية والقوات الألمانية المحتلة، كانت صفية بطبيعتها الحساسة والشاعرية تحدثني عن الوعود التي تحملها الحرب لكل مقاتل .....الاحتمالات التي يفكر بها المقاتلون ، وتؤكد على نحو جازم إن لا أحد كان يفكر إنه سيموت فعلا على الجسر ،الاحتمالات هي النصر والعودة الى الديار ، ونحن نقطع الجسر مشيا نتطلع الى مياه الراين المنسابة بهدوء فيما عشرات المراكب التجارية المحملة بالبضائع تجري رخيّة، كانت صفية تتطلع الى النهر بنشوة وتقول البساتين هنا بدون النخيل ...دجلة فقط يزهو بها ...ولكن أضغط على يدها ....إرميها في النهر....تلتفت الي بدهشة ...أتابع ، لكن ... ، (لكن) فوق مويجات الراين كما تقول صفية فيما تتسع تتأرجح ، تبتسم بعذوبة ابتسامتها وهي تحدق في النهر ...يتقدم طفل وهو يتطاول ليعرف الى م تنظر صفية ،تدعوه أمه فيعود وفي نظراته الحيرى تساؤل ....تقول أمه ماذا ؟ يحرك كفيه ...خيك!(جنون).

كان لصفيه وجه باسم ،عيناها لامعتان على نحو ملفت ،وانطباع يوحي بالتعاطف، قالت لماذا يجري النيل من الجنوب الى الشمال ؟فيما اتسعت حدقتا عيناها وهي ترقب جريان الراين ،لم أجب ،انطلق صوت باخرة صغيرة يتمدد الى الضفتين ،المقاهي على النهر بواجهاتها الزجاجية التي تمنع صوت الباخرة من الدخول ، تضج بأصوات الشباب الذين يرفعون كؤوس البيرة بفرح غامر،

أمسكت بكف صفية فتراجعت عن السياج المعدني واتجهنا الى موقف السيارات، قالت لنعود ، في عينيها بقايا ظلال ابتسامة تبعث في نفسي رضا هادئا ...تربط حول رقبتها شالا صغيرا بلونين الأصفر والأزرق المنطفء ،ونحن في الطريق قالت ما اغرب ما صادفك وانت تسافر؟ ...كنت قد حدثتها عن عشقي للسفر ...ولكن سفري لم يكن وفق مخطط أو منهج ...كنت أسافر كل سنة لوجهة لم تكن في نطاق ما كنت أخطط له ...قلت لها ، حسنا ...كنت في سريلانكا...وبعد ثلاث ليال في كولومبو اخذت السيارة الى شلالات ديفون ...في الطريق توقفت لتناول القهوة ...كانت مقهى جميلة تحجب سماءها أشجار وارفة ،جلست في الساحة الصغيرة الخضراء ..أخرجت كتابا عن ابن رشد كان الكتاب باللغة العربية ...شغلتني عبارات معقدة التركيب اللغوي ...في الجانب الاخر من الشارع كانت إحدى الأشجار متميزة بضخامة ساقها والخضرة الداكنة وأوراقها العريضة ،على غصن يمتد الى منتصف الشارع كان قرد يجلس بهدوء يتطلع نحوي باهتمام، هبطت انثاه لتحك رأسه فلم يولها اهتمامه فغادرت الى أعلى الشجرة ...حين مددت يدي الى كوب القهوة التي أفضلها باردة ..تأرجح القرد بيد واحدة ثم وعلى نحو مفاجئ قفز الى طاولتي واخطف الكتاب وعاد بذات السرعة الى غصنه ...فتح الكتاب وقلب في أوراقه ثم رمقني بنظرة طويلة ووضع الكتاب على الغصن وغادر ليلحق بأنثاه في أعلى الشجرة

ابتسمت صفية قلت لها :ماذا ؟

قالت :القرود في سريلانكا لا تعرف العربية

اردفت :والفلسفة أيضا

أدارت عقدة ربطة عنقها الى اليمين ، بعفوية أدرتها الى اليسار ، شبكت يديها على صدرها وقالت : لقد فهمت

ونحن نغادر السيارة قالت :ما زلت افكر بقرد سيريلانكا...هل تعلم ، ربما كان يعتقد انه سيرى في الكتاب قرود العراق وقد أصابته خيبة أمل وهو يكتشف انك تقرأ فلسفة

.... لم أعلق

عاود صفية الحلم الذي اشتكت منه على مدار الاسبوع المنصرم ،كنت أحاول التخفيف من انفعالها ولكني في حقيقة الامر بدأت أخشى إنه نذير شؤم ...عادة لا أجد في الاحلام ما يمكن الركون الى انها نبوء قد تجد الطريق بشكل ما الى التحقق ولكن ما تشتكي منه صفية لابد ان يكون له تفسير ....قالت بانها لابد ان تذهب الى بغداد، فعلى الرغم من مكالماتها اليومية مع أمها فهي لا تشعر بالاطمئنان ...كان الحلم الذي يتكرر مع بعض التغيير البسيط ... إن قبر أخيها الذي توفي في الرابعة من عمره ينز دما وإن الدم ينساب الى الشارع القريب من المقبرة لكن السيارات العابرة لا تتلوث عجلاتها كما إن المارة الصامتون في مسيرة حزينة لا يبدوا عليهم ما يشي بمشاهدتهم للدم ...كانت صفية التي تقف على الرصيف تشاهده يستمر في الانسياب.

قلت لها سنسافر سوية، هزت رأسها موافقة ،كنا نتناول الافطار فيما تتدفق اشعة شمس نهاية نيسان عبر شباك الصالة المطل على الشارع ، كان الشباك على عرض جدار الصالة وتقوم صفية صباحا بطي الستائر بطريقة أنيقة ،لم تسال لماذا غيرت رأيي بسفرها ولكني كنت المح السؤال حائرا في عينيها

قلت :في مطار بغداد ستواجهين صعوبة في عملية الخروج ،اولا في الجوازات وثانيا في الوصول الى ساحة عباس بن فرناس و ثالثا في الحصول على سيارة الى البيت

لم ترد ولكن ظلال الشك بقيت تضفي على نظراتها انطباعا بعدم الاقتناع، اعرف صفية حينما يصعب عليها الاقتناع بأمر ما

رمقتني بنظرة عميقة وثابتة :أكيد

كان تساؤلا متخابثا

قلت :لا

قالت :وإذا ؟

... قلت: رأيت حلمك ولكن

قاطعتني :لا تخبرني

حينما تعرفت على صفية ،كنا في شهر شباط عام 1994 كانت هي تخرج مقيدة اليدين من غرفة محقق الكرخ وكنت انتظر دوري للدخول ،الممر البارد دفعها لأن تلف شالا صوفيا حول رقبتها ،فيما بدت عيناها غائمتان ببقايا دموع ربما مسحتها في غرفة المحقق ،شدني منظرها ،كانت رغم الانكسار في نظراتها تبدي مقاومة، ترفع رأسها بكبرياء دون ان تولي الممر والجالسين وا لشرطي الذي يمسكها من ذراعها أي اهتمام . كنت أتابع قضية موكل متهم بعدم الوفاء بدين عليه .

كان قاضي التحقيق أحد زملائي بكلية الحقوق ،سألته عرضا عن المتهمة الجميلة ،قال لا تشغل بالك ،مطلوب جرة إذن .....موظفة حسابات في مصرف الرافدين،،، كتبت احدى الموظفات انها (غير متعاونة) وتم احالتها الى دائرة الامن بحجة المساومة على رشوة لتسهيل معاملة قرض لأحد المواطنين ،سألته والنتيجة ! قال إنها بريئة فقد كان (المواطن) مرتبكا ....أمرت بإطلاق سراحها

شكرت القاضي وخرجت مسرعا لألحق بها وبالشرطي وهما بانتظار تكسي

لماذا لا تفك قيد السيدة ...ألم يأمر القاضي ببراءتها ؟-

. لماذا تتدخل ...في مركز الشرطة سيتم ذلك-

القانون يلزمك بفك قيودها الان وأنا المحامي المكلف من القاضي بمرافقتكما - الى مركز الشرطة لانهاء مقتضيات اطلاق سراحها

فتح الشرطي قيودها ،التفتت الي وقالت :شكرا أستاذ

قلت لهما ان ينتظرا لأخرج سيارتي من موقف السيارات القريب ،أمام المفوض في مركز الشرطة كررت أني مكلف بمتابعة اجراءات اطلاق سراحها من قبل القاضي ،لم يعقب المفوض على كلامي لان امر اخلاء سبيلها كان صريحا.

قلت له هل يمكن ان يزودني باسم كاتب التقرير لمقاضاته ،رمقني بنظرة طويلة ثم طلب منها الانتظار خارج الغرفة ...التفتت الي وقالت :استاذ يرحم والديك بلا مشاكل اود الاسراع في الوصول الى البيت، أبي وأمي قلقان جدا وأخشى عليهما من الانتظار.

قال المفوض :استاذ اكرر ما قالته الاخت بلا مشاكل الموضوع ما يستاهل

وغمز بعينه ،

عرضت أن اوصلها الى بيتها بسيارتي مانعت ، ولكنها ركبت السيارة ، ونحن ننطلق الى مدينة الحرية

قالت :لا أعرف كيف اشكرك ،كما إني كنت حائرة كيف سأدفع أجرة التاكسي . لأنهم جردوني من كل ما أملك بما فيه بعض الحلي الذهبية

اين كان ذلك ؟ :

في مركز الشرطة حين وصلت مساء امس:

ودعتها عند البيت وعدت الى مركز الشرطة ،كان ضابط مركز الشرطة متجهما وفكرت انه ربما سيعقد موضوع مطالبتي باسترداد ما أخذ منها عند استقدامها ، ربما سيطالبني بوكالة عن صفية ....ابتسمت وقلت مساء الخير استاذنا الفاضل ...هل تفضل انتظاري بعض الوقت

حدق بوجهي برهة وقال :لا ...طلباتهم لا تنتهي وفوق كل شيء انها لا تتماشى مع مجريات القانون وعلي ان اجد التخريج لها لتفادي المسائلة لاحقا ...بالطبع لي انا فقط ....نعم ماذا تريد ؟

وسعت من حجم ابتسامتي الودودة :أعانكم الله ونحن نماثلكم عناء فالموكلون لا يرون غير حاجتهم ونحن نبحث عن المخارج القانونية

نظر الى شنطة يدي :هل لديك زيارة لاحد الموقوفين ؟

لا. في الحقيقة لاسترداد حاجيات الموقوفة سابقا صفية عبد القادر والتي حكم - القاضي بإخلاء سبيلها

في مراكز الشرطة لابد من توخي الحذر في اللغة التي تتحدث بها ، تتجنب استعمال عبارات يمكن ان تتسبب في استفزاز الضباط على وجه الخصوص ، فبحكم الحداثة في السن والرغبة في التحقق من تأثير سلطتهم فهم مستعدون لإبداء الغضب لأتفه الاسباب ،واحيانا يبدون كأطفال مزعجين يصعب ارضائهم . وقد تعلمت الكثير من الاساليب في مواجهة تلك الحالات

صرخ الضابط ينادي العريف سعدون ،تطلّع إلي بأسف : تصور إنا لا نملك حتى جرس يرن عند العريف في (القلم) كما إنه لا يملك هاتفا ...عليّ أن أصرخ ...المقاول.... ،اتبعها بشتيمة بذيئة وعدني بان يتبرع بجهاز (دكتافون) ... .حسنا لينتظر

قال الضابط :سعدون سلمّ الاستاذ محامي المطلق سراحها كافة متعلقاتها ،ولا تنسى أن يوقع وصلا بالاستلام .

حين عدت الى دار صفية ،كنت أحس إن شعورا غامضا يدفعني ، قوة لا يمكن تحديدها تجعلني مندفعا بنشاط الى رؤيتها .توقفت عند كشك على الطريق لشراء قنينة ماء ولأفكر بهدوء بهذه اللجاجة التي تتملكني لرؤية فتاة لم أرها إلا هذا

النهار،وان أرتب مشاعري ومبرراتي ...كان هدوء عميق يسكن وجهها وفي عينيها الواسعتين والعميقتين غموض اسر....وشدني ايضا تحفظها ...في الطريق حين كنت أوصلها لم تتحدث ...ظل الصمت حائرا في انطباع ودود ...ولكن هل يمكن ان يشغلني هذا على هذا النحو؟ كانت كلية الحقوق تعج بفتيات جميلات...وفي مهنتي التقيت بعشرات الفتيات والنساء ولكن حتى لم افكر بخلق علاقات وقتية مع اي منهن لماذا اذا أنشّد الى هذه الفتاة الصامتة ،قال الشاب صاحب الكشك :استاذ هل تريد كرسيا لترتاح ؟...يبدو عليك التعب .

قلت :شكرا سأغادر كنت أرتب اموري.

فكرت انه لكي أصل الى حقيقة ما يعتريني علي ان أحيّد مشاعري المفاجئة اولا لأني ولأول مرة في حياتي أهتز على هذه الشاكلة ...لم تكن مشاعري بعيدة عن الاحساس بالحب او الانجذاب على الاقل ولكن الظروف المحيطة كانت تسد اي تدفق لمشاعر بالحب او بتكوين اسرة ، فقد كانت الحرب والتهجير ومشاكل اقتصادية لا حصر لها ,حين باشرت الدراسة في الابتدائية فوجئت بان عددا كبيرا ممن تعرفت عليهم انقطعوا عن الدراسة ....قال ابي انهم يرحّلون من لم تكن جنسية عائلته الاصلية عثمانية ،لم افهم ...قلت لابي بنبرة خوف واضحة ...هل نحن عثمانيون؟ ...ضمني ابي اليه وقال :نعم

وفي المتوسطة كانت إدارة المدرسة تصفّنا في الشارع لتحية الجيش المغادر الى الحرب ...كنت أفهم ...قلت لأبي : ولماذا هم مجوس ؟ وحين رأيته صامتا قلت معتذرا :هذا ما يقوله مدرس التربية الوطنية .

وفي الثانوية كنت في الجيش الشعبي الذي كنا نسميه (الجيش الالزامي)، وفي معسكر (النهروان) كانت التدريبات العسكرية طوال النهار اما في الليل فكانت جلسات سمر وغناء ...كنا نعرف جيدا اننا مراقبون وكنا بدون مناسبة نكرر حفظه الله ورعاه ،حتى باتت اقرب الى السخرية المبطنة منها الى الدعاء.

في الجامعة كانت مجاميع الطلبة بين متحمس لحزب البعث وبين منكمش يخضع لمراقبة دقيقة ،وكانت هناك مجموعة تصر على خلق مناسبات للقاءات تتسم بالمرح ...ومرة سألت احد زملائي عما اذا لاحظ ذلك ...نظر الي بتمعن وقال :لا تنشغل بهذا .

كانت أمي ترى في الدراسة المختلطة فرصة لأ تعرف على الفتاة التي قد تصبح زوجتي ، أربع سنوات كافية لتحكم عليها وليكون اختيارك صحيحا ...أنا احلم بيوم عرسك ويمينا سأرقص بشعري الابيض ،قلت لها وسيقولون لقد رقصت أخير المرأة ذات الشعر الأبيض.

كانت حاجيتها ... خمسون الف دينار وإسورتين من الذهب وسلسال فضة ينتهي بأيقونة من حجر فيروزي رخيص .....

حين طرقت الباب تأخر الرد ، ومن خبرتي كنت اتوقع ذلك فالخوف يظل معلقا ويخلق حالة من التردد ،حين أعدت الطرق رد صوت تشوب نبرته ظلال شكوى مكبوتة :من ...ماذا تريد ؟

قلت : أنا المحامي وقد أخذت من مركز الشرطة متعلقات صفية

سمعت صوتا أكثر نعومة وتماسكا : أمي أنا أفتح الباب

صرّ الباب الخشبي وفكرت إن مفاصله بحاجة الى قليل من الزيت ،تعرفت على هذه الحالة منذ كنت صبيا وكنت أضع بضع قطرات من زيت الطعام على المفاصل الخشبية.

تفضل-

فتحت الباب وتنحت جانبا ،كان الممر المؤدي الى صالة واسعة مزدانا بلوحات من عمل رسامي الكرادة كما جرت تسميتهم وعادة تكون لوحاتهم معدة للسواح او الأجانب العاملين في السفارات ببغداد ...لوحة (مشحوف)تدفعه فتاة من سكان الاهوار ...جلابية طويلة بلون احمر مورد أو أصفر بأزهار برية وعلى رأسها

عصابة سوداء ،عيونها واسعة وفي تثني جسدها وهي تنحني قليلا لتغرس (المردي) في الماء مرونة وشيء من الغنج ،أو بضعة طيور تغادر الماء تحت سماء صافية الزرقة فيما يبدو البردي كثيفا تتخلله قنوات متعرجة ،

كانت الصالة مضاءة بثريا مما تزدحم به أسواق مدن المزارات فضلا عن ثلاثة مصابيح احدها كبير الحجم ،على جانب الصالة طقم كنبات مغطاة بشراشف رصاصية وعدد من كراسي بيضاء من البلاستيك والتي انتشرت في بغداد تلك الايام وفي الوسط منضدة خشبية مستطيلة عليها (سماور) ذهبي ،كان في صدر الصالة عجوز يجلس ممددا ساقيه ،قالت صفية أبي .

قالت الام :سأعد الشاي

لم أعترض ،جلست صفية على كرسي بلاستيكي عليه مقعد قطني ،على وجهها هدوء عميق يتجلى في نظراتها المستقرة ،لم تكن مكسورة لأنها تعرضت للاعتقال لليلة في مركز الشرطة دون ان يوجه لها إتهام ما ،قال مفوض التحقيق انه توقيف احترازي .

... قالت -بماذا يمكن ان أساعدك أستاذ

...استدركت-اعذرني لأني لم اشكرك

حين سلمتها متعلقاتها قالت -كم يتوجب علي الدفع لحضرتك ؟

-لا شيء-

قالت الام وهي تقدم الشاي :اللعنة على من كان السبب ،صفية دائما بحالها ولم تتسبب في أذية انسان.

قلت :هل لديك تصور عن سبب ما حصل ؟

قالت :لا ...وارجو ان نتجاوزه ...كنت اسمع بالرعب أو أقرأ في بعض الروايات ما يعانيه السجناء من رعب وهم ينتظرون ساعات التعذيب ، ولكني شعرت به

...لم انم فقد كنت ارى وحشا منفرا يتحفز لتكسير عظامي كي يلتهمني ...كنت احس بأنفاسه قريبة من وجهي وكنت أشم رائحة منفرة ،كنت بعيدة عن العالم وبدت وجوه من أعرفهم غارقة في بؤس معتم ، وحين حركت يدي لأمسح العرق الذي كانت تتفصد به جبهتي، لم أشعر إنها تخصني

اقدر ما تسبب به اعتقالك ولكن علينا ان نفكر بواقعية ...المئات تساق الى - التحقيق وبعضهم لم يعد .....صمت وانا اتطلع الى سحنتها المنقبضة وتابعت ،

ولكن اسمحي بسؤال (سياسي) هل انت على علاقة تنظيمية بالحزب ؟-

جفلت من السؤال وردت بنبرة جازمة :لا

وأردفت :لقد تمت مفاتحتي من احدى زميلاتي في مصرف الرافدين أكثر من مرة . ولكني رفضت

ومتى كانت اخر مرة؟-

ابتسمت وقالت بعفوية :سنواصل التحقيق بعد الشاي لأنه سيبرد ،طريقتها في الحديث جعلته يتحسس الارض بقدمية وشعر بانه يتعرف الى عالم جديد لم يألفه قبلا ،البساطة مشحونة بثقة مغيضه ،ولامبالاة اكثر تركيزا وهي تنظر الى عينيه مباشرة ،

انفلت عصفور كان يقف على افريز الشباك ورفت جناحاه وهو يصعد الى أعلى النخلة التي كانت تسكن في صمت موحش ،على الجوانب ارتفعت حشائش شيطانية ،كانت عيناها وهي تصمت كعصفور يغادر النخلة بصمت ، وما أن تبدء بالحديث حتى يتحولان الى عصفورين يملان المكان ضجة بزقزقة متواصلة يشتتان تفكيره ،

جرى كل شيء بعد ذلك بسرعة ، وحين تزوجا ،اصبح يشعر انه يضع قدمية على أرض صلبة ولم يعد ينأى حين يضع رأسه على الوسادة، الى عالم سريالي تشغله رؤى غامضة.

الفصل الثاني

انتهى أسبوع (العسل) في اسطنبول بسرعة ، شعرت إني أكتشف نفسي ، ونحن نأخذ مكانينا على الطائرة التركية ، فقد أصبحت فجأة أشكل كيانا مستقلا والرجل الذي يجلس الى جانبي أقرب الي من عائلتي ،ربت على يدي وأغمض عينيه فقد بدا متعبا ،حين أهبط في دائرة ذكرياتي المنزوية والتي تحكمها عزلة بظلال داكنة، ينتابني إحساس بالألفة ل (عمر) الذي كانت أيامي معه تتسارع تحت سماء بنجوم تتلألأ ناشرة فرحا عميقا ، ولم أشعر بالخوف من الارتباط برجل وبداية مشوار بعيدا عن أمي وأبي وحياتي اليومية بكل تفاصيلها التي تشغلني ،كانت مخيلة عمر متعددة التوجهات فهي تملك صورا سريعة الحركة في تداخل الوان ليس من السهل متابعة فرزها ، كما كانت مدققة ليس من أجل تحديد مسار ثابت ولكن من أجل كشف التناقض ، ربما هذا بسبب العمل الذي يمارسه يوميا ، فهو يقابل عشرات الاشخاص يمتهنون عموما الكذب وإشاعة الالتباس في حديثهم ، قال عمر ...المحامي يمتهن العبور فوق مجاميع الحقائق التي تخفيها ظلال التزوير ....وتتطلب المهنة ، في الكثير من الأحيان، تلوين الظلال لتبدو هي المنظر الحقيقي ، القاضي تحكمه الأوراق التي أمامه ، ومسارات القانون الملتوية . يعرف كل منحنياتها المحامي

كان كل هذا بالضد ما أنا عليه ، تخرجت في كلية التجارة وعملت في قسم المحاسبة في مصرف الرافدين ،أمام المحاسب ممرا ربما يكون معتما في بعض أجزائه ولكنه لا يفضي الى ممرّ اخر ،في عمل المحامي ممرات سحرية أما المحاسب فأما أن يخطئ فيغرق في بحر بلا منفذ أو يصيب فيعبر الى الشاطئ الاخر ، وفكرت ان هذا الاختلاف سيكون الحبل الذي سيشدنا سوية الى مستقبل

أكثر رسوخا من النخلة التي تتطاول أمام شباك غرفتي ، بهية تنشر الفرح وهي تحرك السعف فتتطاير العصافير، وتظل (فاختة)غير مبالية وهي تحتضن البيضة الوحيدة التي بقيت في العش

إن رحلتنا لن تدفع بنا في مسارها الى البحث عن طرق بديلة تظل في متاهات افكارنا لنلجأ اليها عن مشارف عملية التشظي وليمضي كل منا الى غاية مغايرة، سنبقى نملك قوة التلازم في وجود مشترك يتخطى العقبات التي تفرضها المسيرة اليومية لحياة مشتركة

فتح عمر عينية ،تحسس يدي ثم أعاد غلقها ،كان في إغفاءة عميقة ،وبدا مستسلما هادئا وكأنه يستعيد حلما .....كنت أدرك إني أحلم وأصر على أن أستيقظ لأنهي حلما يضايقني ...أصعد جبلا صخريا تعلوه شمس تكشف كل الشقوق والكهوف الصغيرة ، فيما تطل عيون سوداء واسعة تستطلع بغضب ...أستيقظ لأنهي الحلم ثم أعود الى نومي .

هل كنت تحلم ؟-

لم يرد ,كان كمن يستعيد ذاكرته بالمكان ،إعتدل في جلسته متسائلا

نحن في الطائرة ؟-

كان المقعد الثالث خاليا وضعت عليه حقيبة يدي وجاكيت عمر ، رفعتهما لأجلس الى جواره

هل تريد ماء ؟-

... لا ...شكرا -

طافت على وجهها ابتسامة مرحة

أشعر أني أفقد وزني ...كنت احلم اني اسبح في فضاء لا متناه وانت تقفين على - غيمة تغير لونها كل لحظة ...كنت مندهشا حين طلب مني شخص ما لا أراه أن

أدفع له ثمن طيرانك فوق الغيمة ....لم تكن في ملابسي جيوبا ولهذا السبب فانا لا املك نقودا ...قال الرجل ...احرص في المرة القادمة ان تكون لديك جيوب !!!

شعرت بخجل وقررت ان استيقظ

لا بأس ....يحصل هذا معي-

تطلع حوله ورفع كفي ، كانت شفتيه حارة وشعرت بامتنان

سيكون لدينا الوقت الكافي لنعيد ترتيب البيت الصغير...عليك ان تفكري بكل التفاصيل الصغيرة -

شعرت بأسى يتملكني وكأني اقذف الماء من فمي لأنه لا يعبر بلعومي ...أبي لا يمكنه الحركة وامي تتحرك بصعوبة ...عائلة عمر في كركوك ومنذ تخرجه يعيش وحيدا في البيت الصغير في المنصور ...لا ضرورة تدفعه لأن يفكر كثيرا بموضوع سكننا ....بين الحلم الذي كنت فيه اتسلق الجبل الصخري وتفكيري بتركي عائلتي لأسكن مع زوجي رابطة غامضة وأتأمل في مسار الحلمين .....التفتّ الى عمر ، يبتسم بتعاطف ،يقول انه كلما صعد الى الطائرة يشعر بانه ينفصل عن العالم ...السباحة في الفضاء تشعره بالسعادة ، تغمره ليعود طفلا يحلم بالصعود الى السماء ...ينظر الى اعماقه حيث العالم يلفه سكون متصالح ...البعد يبعث بمشاعر مختلفة ...ظل لفترة طويلة يحدثني عن العزلة اللذيذة التي يستشعرها وهو في الطائرة ،فكرت لو اني التقيت (بعمر) في وقت سابق لكنت اكثر ايجابية لتعاملي مع الحياة ....يشعرني بطمأنينة تترك مساحة واسعة للتفكير على نحو منظم وهادئ

-ساعات ونعود ثانية-

-نعم ولكنا نعود وقد تغيرنا -

ابتسم وقد اعجبه احساسي بالتغير

-تغيرت معي-

امسك بكفي ثانية ولثمها ، شعرت بقناعة مطلقة بالقبول

حين امسك بكفّ صفية اشعر براحة فهي تنبض بحرارة تشعرني بدفق الحياة البهيج ، رهافتها ودقة الاصابع الرقيقة تحملاني مسؤولية الحفاظ عليها فيداخلني شعور باننا نحن الاثنين نسير فوق الماء بيسر وبرشاقة وكأننا نودي دورا في مسرحية مرحة ...نسقط في الماء فتنطلق صفية ضاحكة وهي تمسح الماء عن شعرها.

ونحن نغادر المطار في بغداد كان مساء بدا لي حزينا فقد وقف قمر شاحب في وسط سماء تغلفها نوبة غبار تجعل من الفضاء مجالا مشوشا ،الاسلحة التي دكت بغداد كانت ملوثة بإشعاع غيرت من تجلي المناخ البغدادي القديم

قالت صفية – اشعرت بالاختناق

قال سائق التاكسي –انت تعودين الى بغداد

قالت صفية –نعم

لم يعلق السائق وزاد من سرعته فيما تكاثف الغبار امام زجاج السيارة ، وتحولت اضويه السيارات الى منظر شديد الالتباس ،كنت اشعر اننا نمر عبر زاوية تختلط فيها الظلال ،انا وصفية والسائق نجتاز عالما سحريا لم يكن جزءا من ذاكرتنا قبل الحرب ،رياح قوية تضرب شبابك السيارة برشقات رمل خشن يحدث صوتا حادا ونحن نعبر الجسر ...تبدو دجلة اسيرة تجري ، ولكن الغبار لا يسمح برؤيتها ، امتداد مشوش ،عبرنا الجسر الى الرصافة

قالت صفية :الموت يسبح بين الضفتين

ضغطت على كفي بعصبية وتابعت :لن ياتي الربيع هذه العام

قلت لها –أين قرأت هذا ؟

لماذا ؟-

لاني اتذكر شيئا مشابها ولكنك غيرت في الصياغة -

.... ربما فذاكرتي الان مغلقة-

! قال السائق –الله يعلم لماذا يحصل كل ما يجري وربما الامريكان

الله يعلم، ولكن .... اليورانيوم المنضّب من تسبب فيه-

قال السائق - ليس بوش ابو شوارب

منع الغبار والغضب الذي تنذر به السماء، الاطفال من الجري على الارصفة ،كما توقّف الباعة المتسربون بين صفوف السيارات من الظهور .....غير الحركة للسيارات لم تكن الحياة بادية على بغداد ، كانت مكتومة تحت الغبار وغيظ السماء ،

قال السائق –بالسلامة

وغادرنا ،لم الحظ عليه انطباعا ما ....كنا ما نزال في بيت عائلتها ولم اتمكن من اجراء التعديلات المناسبة لانتقالنا الى البيت الصغير الذي اسكنه.

قالت صفية ...يمكننا ان نجري ما نرغب به على مهلنا ....وكنت ادرك انها محكومة بهاجس خفي للبقاء اطول مدة ممكنة في بيت عائلتها ...الانتقال الى بيتها الجديد يعني دخولها نمط ا مغايرا من المعايشة اليومية ويحملها مسؤولية لم تفكر بها...على الباب كانت امها تختلط في ملامحها الفرحة بالحزن ،ربما يقفز من اعماقها شعور بانها ستفارقها ،في ذات الوقت الذي يشدها فرح بلقائها ...الضحكة الكبيرة تطفو على قطرات الدمع الذي تذرفه عيناها ,الخوف الكامن في اعماقها يختلط بالفرحة التي تحتضنها بيديها ،

قالت صفية ونحن ننقل اثاث البيت الجديد –هكذا تبدأ الحياة وهكذا تتجدد، سنؤسس عائلة اخرى ...حلقة جديدة في تشكيلات الوحدات المتفرعة عبر الزمن في اطار المجتمع

وحين نحتفل في العيد سنكون اضافة الى (اللمة) العائلية-

لثلاثة اشهر ظل عمر موزعا على اضلاع مثلث ...العمل وبيته الجديد وبيت اهل صفية ،في غرفة صغيره مكتبه حيث ملفات الدعاوى التي التزمها ... في الصباح الباكر يجلسان سوية في السابعة وبعد افطار سريع تصحبه صفية الى عملها ويواصل هو الى المحكمة او الى احد مراكز الشرطة ,وفي العودة لا تنتظره .....صفيه لأنه كثيرا ما يتأخر في عملية متابعة القضايا او المناقشة مع موكليه

مجرى ماء هادئ وسلس وشفاف تفيض عليه شمس اذار بأشعتها التي تخترق قطرات المطر القادمة من بحار السماوات العليا وتلون حبات الماء على العشب الممتد على جانبي المجرى ،تذكر عمر اسطورة (أدونيس) وشعر برجفة تسري في جسده .....هل سيجري دمه في النهاية ... ان ايمانه المحدود يستبعد هذا التماثل ،

البيت الصغير ، تحول خلال اشهر الى واحة تشرق اضوائها بحبور يبعث في نفس عمر مزيجا من الدفء والاستغراب ،كانت صفية تتمتع بحساسية مفعمة بذوق رفيع ،أعادت دهان الجدران واختارت اثاثا بسيطا وستائر ثقيلة بالوان تتناسب وحرارة الصيف في بغداد ،وفي مقدمة البيت استعانت بصديقة لديها لتزرعاها بشجيرات معرشة ،وعلى امتداد السياج كانت شجيرات الليمون والرارنج تزهو بخضرة بهيجة ،ما اتعب عمر هو تامين الماء اللازم لسقي الشجيرات واصص شجرتا كاردينيا وملكة الليل .

واجها مشكلة بعد وفاة ابي صفية ،كان ذلك في ليلة اشتد فيها المطر واصبحت بغداد، كالعادة ،تتخلل شوارعها الرئيسة مجار لانهار هبطت على حين غرة من السماء ،غادرت صفية البيت الصغير لتكون مع امها التي رفضت الانتقال معهم ،واصبح عمر موزعا بين البيتين ،حاولت صفية ان تخفف من معاناته ،ولكن الحل جاء بانتقال خالتها وبنتيها للإقامة مع الام بسبب طلاقها ...عادت صفية ،كانت تقول ان ذكرياتها لا تمكث كثيرا فهي تتسرب ،وربما هذا ما يمنحها القدرة

على الموائمة ،فهي بحاجة دائما الى حدث جديد وهذا ايضا يمنحها الرغبة في خلق ما يملأ وجدانها .

قال المراجع –استاذ قضيتي بسيطة ،لدي بستان تقع مباشرة على النهر ، مسجلة باسمي في دائرة الشهر العقاري وامامك صورة عن سند الملكية ، والاملاك التي تحيط بها لعائلتي ، ونحن نسكن في هذه المنطقة قبل ترك العثمانيين بغداد ، اما المالك الجديد فهو من شمال بغداد ، والمستند الذي يحمله مزور

قال عمر –هل راجعت الشرطة وقدمت بلاغا بذلك

نعم-

دعني اطلع على اوراق القضية اولا-

كان ذلك في صيف قائض ارتفعت فيه درجة تأثير الحصار الدولي على العراق

يقول تقرير الشرطة ان سند الملكية الذي قدمته قديم في حين ان سند ملكية - المشتكى عليه حديث ، كما ان جواب دائرة العقار يؤكد ان العقار مسجل باسم المشتكى عليه ومدد مرتين خلال العامين المنصرمين.

كما اكدت لحضرتك المستند مزور ودائرة العقار متواطئة مع المزور-

وكيف يمكن ان نثبت ذلك ؟-

هذا ما دفعني الى اللجوء اليك ...أنت محام وتملك خبرة في هذه الامور -.

جاء في كتاب قاضي التحقيق ان المشتكى عليه هو السيد عبد الغفور عبد القهار وهو من مواليد 1952 وانه اشترى العقار الواقع على نهر دجلة بمساحة 5 دونم واربعة اولك من عز الدين احمد الكرعاوي ، ولكنه لم يذكر تاريخ الشراء،

قال عمر –هل تعرف المالك الجديد؟

نعم ..احد الاصدقاء اعلمني انه زوج اخت المحافظ-

وبعد-

يعمل في تجارة العقارات ، ولكنه غير معروف في منطقتنا ،جاء صباح يوم - قائض بسيارة سوداء تتبعه سيارتا بيك اب تقل عشرة مسلحين ،كسروا باب المزرعة ووضعوا قفلا جديدا ،وبعد ان تجول في البستان وعاين البيت الصغير فيها ،أملى على أحد مرافقيه تعليمات مختلفة وقفل عائدا بسيارته بعد ان ترك ثلاثة من مرافقيه للحراسة ،

-حسنا سأدرس القضية وأحدد مسار التقاضي فيها ، يمكنك مراجعتي بعد يومين-

-وما هي تكاليف التي يتوجب علي دفعها ؟-

-سنتحدث في هذا عند عودتك-

الفصل الثالث

اعتدت الاستيقاظ في السابعة صباحا ، درجت على هذا الموعد منذ أول يوم التحقت فيه بكلية الحقوق ، بعد تخرجي انتظمت في العمل بمكتب محاماة وكان من المعتاد أن أكون أول من يدخل المكتب ، وحتى بعد افتتاحي مكتبي الخاص بقيت محتفظا بهذه العادة ، نصف ساعة أتناول فيها افطاري واستقل سيارتي إلى المكتب ،يستقبلني المعين الذي يعمل على حراسة المكتب وتنظيفه واعداد مستلزمات الضيافة لزبائني والزوار ،واعتادت صفية على مواعيدي المسرعة .... دائما

اليوم كنت متراخيا ، استغربت صفية وحين أخبرتها إني سأتأخر صمتت بترقب لأفسر لها الموقف

لاشيء ،أشعر ببعض الكسل ....يمكنك تناول افطارك-

تذهب صفية الى العمل بسيارتها ، لم نكن مرتبطين بالذهاب سوية ،

قالت :لست مقتنعة ...ونحن نتناول العشاء وجدت انك مشغول ، يمكن ان أكون مفيدة

لا تنشغلي ...فعلا لدي مشكلة وسأعرضها عليك حين استكمل بحثها-

لم تناقشني ، وهي تخرج قالت :حين اعود لن اترك الموضوع

في غرفة المحامين في قصر العدل في الرصافة حاولت استدراج مدير مكتب المحامي عبد الفتاح ...كنا نسميه (جفجير البلد) كان حسون الابيض ، يعرف كل الاسرار في بغداد ...الشخصيات المهمة وعلاقاتها ...الاحاديث في كواليس الاحداث ...العاملات في خدمة الدوائر الامنية ..كان يقول الجميع يريدون ان يعرفوا ولكنهم يخافون ...دعوته لنتناول الشاي في (الكانتين)الصغير ...قال تعرف اني لا أرفض هذا ....الشاي هو ما يمكن ان يرطب الفم ،

غمز بعينه ،لم اعلق ،قال حسنا ماذا تريد أن تعرف ...اعني ما هي المعلومة التي تريد الوصول اليها .

زرر سترته التي كانت تبدو ضيقة بعض الشيء وأخذ رشفة من الكوب الكبير الذي يفضل ان يشرب الشاي به

هل تعرف عبد الغفور عبد القهار ؟-

وضع الكوب على الطاولة ونظر نحزي باستغراب :مدعي ام مدع عليه ؟

ما الفرق ؟ -

الفرق كبير وكبير جدا ....فان كان مدعيا فالأمر بسيط وستربح الحكم لصالحه - أما إذا كان مدعيا عليه .....كان الله في عونك

نظر نحوي بإشفاق وأردف : انصح بعدم قبول القضية لأنك ستواجه متاعب كبيرة، ستسبب لك مشاكل ليست في حسبانك

هل تعرفه جيدا-

نعم ...مع الذين يقفون بوجهه ،يبدأ بالقتل-

كانت صفية على عجلة قالت : والان انا مصغية لك

كنت محرجا فانا لا أريد أن أبدو ضعيفا ، قلت لماذا لا نؤجل الموضوع

... لا-

ابتسمت وتابعت :الان.... الان وليس غدا

حين شرحت لها الموضوع ،صمتت ، تطلعت نحوي بثبات :لماذا لا تبدأ بزيارة عبد الغفور

-وماذا اقول له ،من الواضح انه قد اتخذ قراره بالاستيلاء على العقار-

. ولو ...يمكن ان تقف على مدى اصراره ،وحينها تأخذ قرارك- -

كان رقم الهاتف والعنوان مسجلين في الاوراق ، حين اتصلت به قال بهدوء وحتى لم يسأل عن سبب الزيارة :لا باس بعد غد الساعة الواحدة ظهرا في مطعم (الساقية) ولكن عليك ان تضع في حسبانك ان كل شيء سيكون على حسابي

قالها بلهجة آمرة ...قلت :لماذا هذا التكليف استاذ عبد الغفور ؟

برد بحدة –اولا انا لست استاذا ،انا الرائد عبد الغفور، وثانيا المطعم لإبني ونحن لا نتقاضى ثمنا في املاكنا

جعله الله من ابناء السلامة ، وبارك لكم في املاككم-

تذكر عمر انه قرأ في كتاب ما أن الذين يعانون من عقدة الدونية في ماضي حياتهم ،يمارسون هذه العقدة على الاخرين ،واعلان عبد الغفور على ان عمر ضيفا وليس عليه ان يفكر بثمن ما سيتناوله ،هو اشعاره بالدونية وليس الكرم من المضيف

كانت مقابلة قصيرة ختمها الرائد عبد الغفور بقوله :اترك الموضوع كلية ولا تشغل نفسك بقضية قد تأخذ منك العمر كله

فهم عمر التهديد وشعر بشيء من التردد وهو يقول :ربما ولكن ألا تعتقد إنك ستخسر القضية لأن فيها الكثير من نقاط الضعف القانونية ، ولن تكون النهاية في مصلحتك

النهاية قطعا في مصلحتي ، ارجو ان تفكر مليا وتسأل عن تجربتي في هذا - المجال ،القانون صناعة بشرية ويمكن في احيانا وقفه عن العمل.

قالت صفية :هو محق فلماذا لا تعتذر عن متابعة القضية ؟

لم أرد كنت فعلا قد توصلت الى طريق مسدود ، وحين سألت حسون الابيض عن مدى تأثير عبد الغفور قال ...سبق ان أعلمتك عبد الغفور لا يعترف بالحدود القانونية

في حوالي الساعة العاشرة ليلا قرع الباب بشدة وكأن الطارق غاية في الاستعجال أو أنه يضمر شرا وهذا الطرق تمهيدا لما سيقوم به

كان على الباب معاون شرطة يصحبه ثلاثة من رجال الشرطة المدججين بالسلاح قال: انت عمر عبد الهادي المحامي

قلت –نعم

قال- ارتد ملابسك وتفضل معنا

كانت لهجته آمرة تخلو من اي مجاملة

أردف: ستسأل عن الامر القضائي ، يمكنك أن تطلع عليه ، أما السبب فستعرفه عند التحقيق

أعرف كيف تجري الامور في مثل هذه الحالات ،لم اعترض ،كانت صفية ممتقعة الوجه

-ساتي معك-

قال الضابط –لا حاجة فقد يعود بعد ساعة إذا لم يكن عليه دعوى غير الشكاية التي لدينا .

قلت –هل يمكن ان أرافقكم بسيارتي ؟

قال الضابط –لا ،واذا ما تمت تسوية المشكلة فسأعيدك بسيارتي الخاصة

فهمت مجمل الموضوع والعملية كلها (جرت إذن) كما نقول في امثالنا الشعبية ، بدأت أرتب افكاري ، يمكن أن اتخلى عن القضية وأن أنصح المشتكي والذي هو في قناعتي المطلقة صاحب حق ، بمحام اعرفه من قرية عبد الغفور

في غرفة ضابط المركز كانت المعاملة جافة ورسمية ، ولكنها لم تتجاوز ذلك ، كان الضابط يخاطبني بلقب استاذ عمر ، طلب فنجان قهوة من الابريق الخاص ، وهذه توصية يستعملها من لديهم ضيوف في دائرة رسمية ، اذا قال فنجان قهوة للأخ ، يعني هذا تأخر اولا وقهوة (مغشوشة) ثانيا ،اما من الابريق الخاص فهي قهوة عادية مما يستعمله الضابط .

كنت اجلس على كرسي خشبي مقعده من الجلد الاسود فيه بعض الشقوق التي كانت بيضاء ،نظرت جانبيا الى الغرفة التي كانت جدرانها مصبوغة حديثا باللون الابيض فيما تدلت ثريا رخيصة بثلاثة مصابيح ، انشغل الضابط بقراءة بعض الاوراق ، رفع رأسه نحوي بنظرة فيها الكثير من الوعيد الرجاء ايضا ،كان يرغب بان انهي الموضوع جون الدخول بأية أحاديث جانبية عن الحق والكرامة وحماية حقوق المواطنين وتفاصيل قانونية يمكن شطبها بخيزرانة رفيعة كانت معلقة وراء الضابط

كان صوت الضابط قويا وكان يحرص على ان يكون واضحا ليعطي الانطباع بالحزم فيما كانت مخارج الفاظه واضحة ايضا وكأنه ممثل مسرحي ملتزم ، كان

يجلس مسترخيا وبعد ان نزع السدارة الرسمية الزيتوني عن رأسه تهدلت خصلات من شعره على جبينه ولكنه لم يرفعها .

- الدعوى المرفوعة ضدك من مطعم الساقية ،يدعون انك تناولت العشاء عندهم ولكنك هربت خلسة ولم تدفع الثمن ، ولأختصر عليك الطريق ، هناك اربعة شهود ثلاثة من عمال المطعم والرابع صادف انه كان يتناول طعامه على الطاولة المجاورة ،ماذا تقول ؟

لم يخطر على بالي اني سأتعرض لمثل هذا الموقف لهذا اختلطت في ذهني الامور ....الهجوم جاء من ناحية غير متوقعة ...

- حسنا اخي الضابط المحترم ...لنتحدث بصراحة ، انت تعلم ان القصة ملفقة ،فعلا كنت في المطعم ولكن بدعوة من الرائد عبد الغفور عبد القهار ، ولا أظن انك لا تعرفه ، لماذا لا نتحدث بصراحة ....المطلوب ان أرفع يدي عن شكوى مقدمة ضد الرائد عبد الغفور

قاطعني الضابط –هذا هو القسم الاول من المقصود بالشكوى

وما هو القسم الثاني؟-

- نحن نتفاهم بسرعة ، هذه ميزة التعامل مع مثقف .

- القسم الثاني أن تقنع صاحبك بأن يكف عن الثرثرة

- تعلم حضرة الضابط ان هذا ليس من اختصاصي ولا مسؤوليتي ولهذا سأفشل فيه

- حسنا اعمل ما عليك والباقي مهمتنا فالقانون تنفذه الشرطة!

- سأحاول ان شاء الله

- لا تتوارى خلف حجج واهية ، يحكم الله الجميع ، أما نحن فانا من يحكم هنا

في الطريق لم نتبادل الحديث ، كان الضابط يقود سيارة مدنية صغيرة لم أتبين علامتها ، ولكن قيادتها كانت سلسة ولا يصدر محركها صوتا شبيها بصوت محرك سيارة صفية على وجه الخصوص ،عند الباب قال –ارجو الا تنسى

قلت- قطعا لا

كانت صفية خلف الباب تتوارى خائفة كتلميذ مذنب ،على وجهها سحابة قلق وتساؤل وهي بملابسها حيت تركتها

اعرف انك تريدين معرفة ما جرى ، ولكن أولا إسعفيني (باستكان) شاي - ودعيني اغير ملابسي ، لأن الحديث لن يكون عما جرى فقط ، سيمتد الى ما سوف يجري ، وهو الأهم في حديثي

ظلت صفية صامتة تنتظر ان أبدء الحديث وفي عينيها جملة من الاسئلة ، كانت قد استوعبت تماما ما قلت ...وما سيجري هو الاهم بالنسبة لها ، فما جرى تلك الليلة قد انتهى وها أنا أمامها

الموضع بمجمله يتعلق بالدعوى ضد عبد الغفور ، تصوري انه داعاني الى - مطعم يملكه ابنه ،وقدم بلاغا أني لم أدفع ثم الطعام وهربت كأي صعلوك ....ومن حسن الحظ إنه لم يبدأ بما قاله حسون الابيض ...علينا ان نتوقف هنا وان نتساءل كيف يمكنني العمل في ظل قوانين اما يصنعها ضابط شرطة فاسد أو يلويها بطريقة أ خرى قاض فاسد ....ما افكر به هو البحث عن مخرج ....في الصباح سنكون اقدر على التفكير السليم

بقيت صفية صامتة ،تعرف حجم المشكلة وابعادها فالحديث السري عن مغادرة العراق اصبح اكثر علانية والقصص التي تروى عن معانات المهجرين تلقى إهمالا متعمدا ، كانت عيناها ثابتتان وقد اتسعت حدقتيهما فيما يتغلغل ضوء الصباح الباهت عبر فتحة صغيرة بين الستارتين المعلقتين على الشباك ،حركت صفية رأسها أولا وهي تعلن قرارا حاسما تعلم انه يشغل فكر عمر ولكنه متردد بإشهاره

الحصار والعزلة والضغط الدولي لم يترك لهم القدرة على التفكير السليم وبدلا - من العمل مع الشعب إ نهم يعملون على أذلاله ، ليس من أحد آمن

حدق بها عمر، ليس من السهل اتخاذ قرارا بعجالة ،كان يدرك حجم المعاناة التي تترب على هذا القرار ، عليهم اولا تامين المال اللازم وثانيا تدبير أمر المغادرة وثالثا البحث عن مهرب يمكن الركون اليه في تركيا على وجه الخصوص

قالت صفية : سنكون هنا غصنا مكسورا سيجف بعد ايام مع حرارة الصيف في بغداد هذه السنين

فهم عمر ما تشير اليه

يجب اولا التفطير بجمع المال اللازم-

لدي الذهب ...ومبلغ التوفير ، صحيح انها لا تكفي ولكن لنفطر ببيع البيت-

سيكشفنا هذا -

يمكن الاتفاق مع المشتري على عدم الاعلان وانتقاله الى ما بعد سفرنا-

ولكن قيد عملية البيع في دائرة العقار قد تثير الشبهات-

علمت من زميلة في مصرف الرافدين انهم اشتروا دارا جديدة ...يعني هذا ان - عملية البع والشراء مستمرة ....الخوف فقط من المنظمة الحزبية في المنطقة

قال حسون الابيض :وإذا فقد قررت الرحيل ؟

قال عمر –لا ، البيت صغير ونحن ننتظر مولودا

ولكن الأسعار الان في حالة هبوط بسبب ارتفاع البيوت المعروضة للبيع-

صحيح ،ولكني سأشتري ...يعني هذا إن هناك تعادلا-

لا بأس أترك الموضوع لأسبوع ، ولكن لا بد أن تحسب عمولتي ،أنا سألفّ - على الدلالين في بغداد

معلوم-

شعر عمر بموجة حزن تجتاحه ،فهو سيغادر بغدادا التي أحبها ،والتي تحتفظ ذاكرته بكل الأشياء الأولى التي تعلمها...شحوب باهت لون وجهه وانكسار حزين يسري في جسده .

مساء كان يتابع مع صفية برنامج الرياضة في اسبوع حين رنّ الهاتف ،في البداية تردد عمر في رفع سماعة الهاتف ، كان بانتظار القهوة التي تعدها صفية في المطبخ ، أرتفع صوت صفية – عمر رد على الهاتف قد تكون أمي

من الجانب الاخر كان صوتا مروغا ولكنه قاس فقد كان جافا تخالطه لهجة آمرة

كيف حال ابن العم عموري-

من معي رجاء-

بهذه السرعة تنسى احبابك....لا بأس أنا عبد الغفور -

اهلا استاذ عبد الغفور ، المعذرة لأني كنت أراجع بعض القضايا-

مرة اخرى لا بأس ....أرغب أن نلتقي غدا ، لا أقبل اية أعذار فغدا الجمعة - والمحاكم مقفلة

حسنا ولكن ليس في المطعم-

قهقه عبد القهار بصوت صاخب دفعت عمر ان يبعد سماعة الهاتف عن أذنه

يلعن شيطانك ...أين ترغب-

في المنصور ...هناك مقهى صغير مقابل (الرواد) الساعة الثانية عشر ظهرا-

ما باليد حيلة ...أنت تؤمر-

قالت صفية –الله الستّار...الا يتركنا هذا الرجل بحالنا ؟

الصباح رباح وسنعرف غدا-

كن حذرا ولا تعطه اية موافقة على التزام ما ، ارى إنه يريد توريطك باحدى قضاياه القذرة -

حين فتح الستارة ، كان القمر يقف وكأنه يتطلع نحوه ، كامل الاستدارة فيما بدا الوجه الذي يغطيه مبتسما بمرح طاغ ، نجوم كثيرة تتلألأ وكانها تشارك القمر هذا ا لابتهاج ،بعضها كان قريبا يومض أمام الشباك ،لم يكن هناك الغبار الذي يلف بغداد عادة وهذا ما جعل السماء تبدو شديدة الزرقة صافية

أغلق الستارة

كانت سيارة عبد الغفور العسكرية قد حركت فضول بعض الصبية ولكنهم وقفوا الى الحائط يتطلعون لعبد الغفور وهو يغادر السيارة بعد ان فتح له السائق الباب ،

ناوله السائق كيسا بلاستيكيا بورود زاهية ، قبل ان يضرب جرس الباب ،فتح له عمر الباب ،كان ترحيبه متحفظا ، وحين سلمه الكيس تردد في أخذه

مسألة بسيطة ، علبة حلويات (من السما) من نعوش ومعمولة لي - خصوصا...عربون بداية المحبة بيننا ..أليس هذا ما يقال في المسلسلات المصرية؟

جلس على كرسي هزاز يستخدمه عمر وهو يجلس امام التلفزيون حين يتعب من مراجعة القضايا

بيتك صغير، ملك أم إيجار-

ملك-

ولكنك محام ناجح والعمل جيد كما اعلم فلماذا لا تشتري بيتا اكبر...بعد فترة - ستجده صغيرا حين ترزق بأطفال

في حينها سأفكر بالموضوع-

لقد وجدت مفتاح حديثي معك ،انا في حاجة الى محام ناجح بالمواصفات التي - تتمتع بها وقد تحريت عنك فوجدت إنك أفضل من يمكن أن يساعدني...وأنت تستحق كل خير

حاول عمر أن يرد ولكن عبد الغفور لم يتح له الفرصة

العولة وكلفة المرافعات وتسوية القضايا لن أناقشك فيها، أنت تحدد وأنا أدفع، - وستجد إن الاشاعات بأنا كرماء هي حقيقة

ولكن وكما تعلم ان لدي الكثير من القضايا حتى إني أفكر بالاستغناء عن بعضها-

يمكن أن تستغني عنها كلها وحسون الابيض يمكن أن يوزعها على زملائك - دون ان يتركك تتعب.....غدا السبت ...الأحد سأخضر الى مكتبك لتوقيع الوكالة وتسليمك الملفات التي لدي

كانت صديقة تستمع بهلع فهي تعرف تماما ماذا يعني هذا التكليف ،

تطلع عمر نحوها ووجدت صديقة ان عينيه تلتمعان على نحو غريب وكأن ضوءا مشعا ،نورا في حدقتيه

-لا يمكن أكون غيري أنا ...لقد حلمت دائما بالعدالة الاجتماعية ، و لم أستطع - أن أواجه كم المظالم التي أجازها القدر ، ولهذا حاولت جهدي أن لا أطيل النظر الى ما يجري لأحتفظ بتوازني ، أعترف إنه هروب ولكن هذه المرة سيكون هروبا الى الخارج

لم ترد ، رفعت أكواب الشاي وتوجهت الى المطبخ ، إنها تهرب أيضا –الان اصبح موضوع مغادرة العراق واجبا لا بد من إنجازه، علينا أن نفكر وندرس . جيدا ما يتوجب علينا عمله

الفصل الرابع

كان حسون الأبيض بادي السرور وهو يهمس في إذن عمر إن البيت قد يسّر الله بيعه وإن السعر المعروض يماثل أفضل الأسعار السائدة في سوق الرصافة اليوم، وتابع بجدية مبالغ فيها إنه يصر على تحديد عمولته 3% من سعر البيع وأن يتعهد عمر بدفعها

قال عمر-على بركة الله ، السعر مقبول ،والعمولة أتعهد بدفعها

هل ماتزال مصرا على الرحيل؟-

لا لقد حصلت على عمل مجز ولهذا غيرت خططي-

غمز حسون الأبيض بتخابث

هل تعلم ...سأقول لك سرا ...قبل أيام جاءني مرافق الرائد عبد الغفور ، -

أنت تعرفه ،وطلب معلومات عنك وعن زوجتك ....حسنا أنت تعلم أني اشعر - ..... بتعاطف معك

-لقد أسمعته كل خير عنك ....رجائي أن يظل هذا بيننا

نقل بعض الحاجيات الى بيت ام صفية ،وبدأ بعرض المتبقي للبيع ، كان يقول أنه . يرغب بتغيير البيت والاثاث

في موعده يوم الأحد ، كان عبد الغفور يتأبط ملفا متضخما بغلاف أزرق ، لم يكن في كيس أو في شنطة ، كان مجرد ملّف يحمله بعناية ،حين وضعه على المكتب داخل عمر شعور بإنه في زمن فارغ تماما تتوالد الاحداث فيه بدون انتظام أو قاعدة عامة تربط بينها ,في الخارج بدأ مطر بقطرات كبيرة يبعث صوتها انقباضا أحس معه بالرغبة في الخروج ،جو المكتب انتشرت فيه رائحة رطوبة ضايقته ، كان عبد الغفور يبتسم بمودة مفتعلة

هل لديكم قهوة تركية ؟--

-لا ، وأنا آسف لأني اشرب الشاي عادة-

-في المرة القادمة سأجلب القهوة معي -

كان يحاول أن يبدو خفيف الظل ، شعر عمر بأن عبد الغفور أثقل من فيل فاطس في بركة موحلة

يمكن أن تدرس القضايا في الملف وتقدم لي ملخصا بالإجراءات اللازمة لكل - منها لأقرر بأيها نباشر أولا

توقف صوت المطر وأطلقت السماء موجتين من الرعد ثم صمت كل شيء،حين تطلع عمر الى الشارع ،كان سيلا يجري في الشارع الفرعي حيث المكتب ،الى الشارع العام ،

قال عبد الغفور – يجب ان نفكر بتجديد مكتبك

ربما في العام القادم-

ربما-

كان المكتب في الطابق الثاني من عمارة متهالكة، تضم أربعة طوابق بدون مصعد ويشتمل على غرفة ومطبخ صغير و(تواليت) ، في أيام العطل المدرسية تضج بصياح الأطفال ومشاجراتهم ، ويضطر عمر لغلق الشبابيك والباب الرئيس للحد من الصخب ،ضحى تسيطر رائحة الطبيخ في الطوابق الأربعة فيما لا تسمع فيه أصوات النسوة أو قهقهاتهن كما هو في الصباح ،وحيث يقوم المعين في المكتب بغلق الشبابيك أيضا ،الزمن في البناية مختلف عنه في الشارع العام المجاور حيث تبدأ الحركة في الصباح الباكر وتشتد مع تقدم ساعات النهار .

في المكتب ، الحيطان باهتة وعلى الرفوف بعض كتب القانون والمجلات القانونية وملفات مهترئة ، وعلى المكتب هاتف أرضي وقطعة كارتون تتوسط المنضدة وعلى الجانب الأيمن حمالة أقلام أهدته إياها صفّية

قال عبد الغفور – لابد من المغادرة

قال عمر وهو يساعد صفية على خلع جاكيتها ، الان أصبح الرحيل واجبا ،والبقاء سيجعلنا عالقين وسنتحول الى دمى لن نتمكن من الحركة إلا بخيوط يلعب بها (الموظف) المكلف

قالت صفية - نعم ، وسنضطر الى الغاء ليس فقط عقولنا ولكن ذكرياتنا واستقلاليتنا ،سنجد إنه لا يلزمنا أن نتحدث عن فروق بين الليل والنهار

حسنا ....تم حسم بيع البيت-

هل السعر ملائم-

نعم-

أرجو أن تستلم المبلغ نقدا أو بصك مصدق من البنك ، عمليات التحايل تنوعت - وتعددت

افهم هذا ، سيجلبون المبلغ الى البيت-

والتسليم ، أعني تسليم البيت-

بعد شهر-

هل هي مدة كافية -

أكيد ...سيكون مسارنا الى كركوك، هذه الخطوة سهلة لأن أهلي يقيمون في - المدينة ، ومن هناك سيتم تدبير أمر السفر الى أربيل ومن ثم الى إسطنبول

أعتقد إن هذا التتابع مناسب-

أصبحت صفية أكثر استقرارا وقد شاركت بتحديد الطريق الذي سيتوجهان عبره في مسيرتهما المستقبلية ،إتخاذ القرار جعلها تنظر الى ما حولها بجدية وكأنها تتفحصها لمعرفتها إنها ستغادرها نهائيا ،وفي قرارتها إنها مقتنعة بما ستفعله،

كانت تجد راحة حين تجلس الى دجلة مساء تستريح على كرسي في أحد مقاهي (أبو نؤاس) ، فيما تدور حولها طيور النورس الفضولية وهي تتطلع الى المنضدة علها تجد ما تختطفه وتحلق بعيدا فوق النهر ،وغير بعيد يجلس شباب يتحدثون بصخب مناقشين (السياسة الدولية) وهم يختلسون تناول كاسات ملونة يشربون منها على مهل ، قال عمر انهم يفضلون العرق العراقي ،وهم بلا عمل ، هذا هو الوجه العلني للصراع الذي يتعرضون له ،كانت تصمت وأحيانا ترد (من لا جارة)،يضحك عمر

أن تذهب بعيدا ،ربما سيبعدها هذا عن الخوف اليومي وهي تجلس على كرسيها في قسم حساب العملاء في المصرف ،الخوف المجهول الذي غادر مكامنه ليستقر في وجدانها ،قالت زميلتها :هل تعرفين ؟

! ردت صفية بعجالة –لا أعرف

قالت زميلتها وكأنها تحدث نفسها : لا تعرف ، الجميع يتحرقون شوقا لأن يعرفوا

فتحت سجل حساب اليومية أمامها فاحتلّ كامل سطح المنضدة ،كان أمامها الإيصال للقرض الذي استلمه الرائد عبد الغفور عبد القهار ،تركت الإيصال فوق سجل اليومية ،خرجت الى الممر ،قال المعين -هل ترغبين بالشاي ؟

نظرت اليه مستطلعة ،قال المعين -هل آتيك بكأس من الشاي المهيّل ؟

-نعم ، فقد أكون بحاجة الى شيء لاذع-

كان عمر يدقق في حساب مفردات السفر ...ما لديه كاف وسيتوفر لديهم بعض المال للطوارئ، السفر الى كركوك بسيارة صفية وهناك يقومون ببيعها ، من كركوك الى اربيل يحتاج الى دفع مبالغ غير منظورة ، الى اسطنبول لن يكون المبلغ كبيرا ، الى اليونان هو الذي يجب ضبطه ، قال أخاه إنه قد يزيد على أربعة الاف دولار للشخص الواحد ، مشكلة مالية أخرى تتعلق بالمدة التي سيقضيانها في اسطنبول في الفندق قبل يوم السفر ،لا ضمانة أكيدة ، وسيكون ثمن سيارة صفية والبيت هو الضمانة .

قالت صفية –حتى الان اشعر أني متماسكة

قال عمر – قرري أن تظلي هكذا فالقلق يشكل هما لا علاج له

أحيانا وأنا أقف في المطبخ أهمس لنفسي أنا راحلون-

ضحك عمر وقال –يدخل هذا في معطيات علم النفس ، أنا أشعر بالاختناق احيانا وأود أن أصرخ وأنا في سيارتي صباحا الى المكتب ، لن أراك ثانية أيها المكتب الكئيب ، ولن أقابل عبد الغفور الذي يحاول أن يسحبني الى عالم من الطين والعشب الشيطاني حيث تصعب الحركة وأطل عالق بانتظار أن يمد يده لي لأنتقل في خطوة واحدة الى عمق أكبر في غابة الطين .

-بكل الاحوال سنهرب ، اليس كذلك ؟-

نعم -

كانت تصفية الأثاث سهلة فقد تم التفاهم مع محل لبيع الاثاث المستعمل، وصباحا جاءت سيارة نقل كبيرة وقام العمال بنقله ,لم يبق إلا ما يكفي لنومهما على ارضية غرفة النوم .

مساء كانت جارتهم أم حسين تسأل مستغربة هل سيغادرون(المحلة) الناس فضوليون بطبعهم ، وعرفت صفية العديد منهم ولهذا أجابتها بهدوء –لا ولكن سنقوم بتجديد الأثاث

منذ أن انتقلت الى العيش مع عمر ، لم تهتم بخلق علاقات مع الجيران حتى إنها لاتعرف إسم الجارين على اليسار أو اليمين ، وام حسين الوحيدة التي استقبلتها يوم طرقت الباب لتقدم لها قطعتي بقلاوة ، حلاوة نجاح حسين في مرحلة الإبتدائية ،وطوال الاشهر المنصرمة لم تتح لها الفرصة لرؤية حسين ، الكائن الحي الوحيد الذي كان يزورها كل يوم وبعد عودتها من العمل ،كانت قطة صغيرة تتطلع اليها بعينين صافتي الزرقة تطفو في نظراتها استفهام لم تتوصل صفية الى معرفة كنهه ولكنها وجدت في زياراتها المنتظمة شيئا من التسلية ،

وحين تعرض عليها شيئا من الطعام كانت تعافه وتقف على رجليها الخلفيتين بشقاوة طفولية .

كيف تستطيع الدخول؟-

سألت عمر ، لم يجبها وقام يتفقد الشباك ، كان المشبك السلكي سليما وكذلك الزجاج ،السلم الى السطح كان في نهايته شباكا لم يلحظ ان واحدة من زجاجاته مكسورة ورغم ضيق الفتحة فقد كانت القطة قد دربت نفسها على التسلل عبرها.

قال عمر -غدا سأستبدل الزجاجة

قالت صفية – افضل أن تتركها فهي لا تضايقني

هل تعلمين ان المصريين القدماء يعتقدون ان القطط من سلالة إلاهية ؟-

لا أحب مثل هذا الحديث ، إنه يبعث في نفسي خوفا غامضا يصعب السيطرة - عليه

كانت القطة قد غادرت بهدوء

قالت صفية- لقد فهمت ما تعنيه ،هل تصدق إني بدأت أشعر برجفة تسري في كياني

احتضنها عمر برفق

إنها مجرد قطة بريئة اكتشفت المدخل الى البيت فاستغلته ، ربما من باب - التنويع في نشاطات يومها

حسنا يمكن أن تصلح الشباك-

لم يكن حسون الأبيض مقتنعا تماما بتبرير عمر لبيعه البيت ولكنه وجد إن ما يهمه أن يقبض العمولة من عمر وكذلك من المشتري

لديّ دار في الكرخ يمكن القول إنها (لقطة) السعر مناسب وهو ملائم لك تماما - ثلاث غرف نوم وصاله ومرافق بحالة جيدة فضلا عن حديقة أمامية وأخرى خلفية ، يمكن أن يلعب بها الاطفال إن شاء الله

أشكر اهتمامك ولكن كما تعلم فإني لا أرغب بالسكن في جانب الكرخ بسبب - عملي

حسنا سأحول أن أجد ما يناسبك في الرصافة-

لم يعلق على كلامه ، كان يخمن إن حسون الأبيض يدفعه فضوله الملح لمعرفة ما يخطط له ،وهو الان مقتنع بأن عمر لن يغادر بغداد

مساء سلم عمر مفاتيح البيت الى المالك الجديد ،شعرت صفية إنها تسافر الى كوكب اخر ، تنفصل عن كل تلوينات حياتها وتحلق بعيدا ، بدا القمر الذي تاكل نصفة حزينا وهو يعبر السماء تعابثه غيوم متقطعة ، كان بعضها ناصع البياض ، فيما كان البعض الآخر يتدرج بين الرصاصي والأسود ،لم تترك الغيوم التي بدأت تشكل ستارا محكما وهي تتكاثف ،بدا إن القمر يكشف عن معاناته فقد اختفى كلية ،بدأ مطر يحوّل الرؤية الى عملية بالغة الصعوبة، خفف عمر من سرعة السيارة ليتفادى المفاجئات ،شعرت صفية بانقباض، حينما يتحول الفضاء الذي حولك الى ظلام وصمت ، سدا يعزلك عن العالم

فلابد أن تستشعر بقلق ربما يسد منافذ التفكير

هل نتوقف ؟-

سأل عمر بصوت استحكم في نبرته تردد

قالت صفية – أفضل أن تستمر بالقيادة ولكن ببطء

قد يكون هذا أفضل-

شعرت بدوار خفيف ،شعور العزلة أربكها ،لم يكن العالم الذي كانت تعرفه ، اختفت النجوم ومات القمر الحزين ،سمعت ارتطام جسم ما بزجاج السيارة الأمامي وتوقف عمر ، كان طائرا لم يستطع أن يحدد خط طيرانه ،دفعته سرعة السيارة ليرتمي وسط الشارع فاردا جناحيه ، لا تتذكر صفية أنها شاهدت طائرا بهذا الحجم ،واصل عمر المسير

بعد نصف ساعة سنصل مطعما يظل فاتحا أبوابه طوال اليوم-

! في مثل هذه الليلة-

ربما علينا أن نبتهل الى الله ليكون فاتحا -

لم يكن في المطعم زبائن ،قال النادل وهو شاب قروي ،قال وهو يضع الملاعق والشوك على الطاولة بنفاذ صبر واضح

ماذا تأكلان؟-

قال عمر ممازحا – بط بالمايونيز

تطلع النادل الى عمر باستغراب ممزوجا بعدم القناعة انه جاد

تشريب دجاج او تشريب لحم-

قال عمر –واحد دجاج وواحد لحم

-لدينا لبن-

-سنشرب قهوة وراؤنا مسافة طويلة-

-لدينا شاي ....هل تذهبان الى كركوك-

لا نتوجه الى بيره مكرون-

لم يرد

قالت صفية –ماذا تفعل ، ربما هذا يومه الأول في المطعم

قال عمر وهو يأخذ سمتا جادا وقد اعتدل في جلسته، وأكتسى صوته الخافت مسحة حازمة

أمام أهلي حاذري الحديث عن السفر الى تركيا أو الهجرة خارج العراق ،نحن – قادمان لتتعرفي عليهم

لماذا ؟-

-افعلي هذا وسيكون الشرح لا حقا-

لم ترد ولكنها شعرت بالحيرة

الفصل الخامس

على الباب كان يقف أخي الصغير(نزيه)، كان يرتدي بنطالا من الجينز تم تمزيقه عند الركبتين وقميصا بمربعات زرقاء فوقه جاكيت من الجلد الصناعي فيما تعبث ريح خفيفة بشعره الذي تركه دون حلاقة ربما لسنة كاملة ،بيتنا عند سفح جبل منخفض وكأنه قطع من جبل أكبر ، حين تركت كركوك قبل خمس

عشر سنة لألتحق بكلية الحقوق ومن ثم لأعمل في بغداد ، كان بيتنا وحيدا عند السفح ، في الصباح تغطي البيت ظلال الجبل ،وكان مشوار المدرسة الثانوية مرهقا ، وفي الشتاء اتمنى لو إنّا في كوكب آخر أكثر دفئا .

يقف بيتنا اليوم على رأس شارع إسفلتي عريض يزهو بشبابك من الخشب على طراز الشناشيل البصرية، فوالدي كان نجارا اشتغل في مجمع البتروكيماويات في البصرة في سبعينيات القرن الماضي ,وكان يحدثنا عن إعجابه بهذا الطراز الخشبي الجميل ،على امتداد جانبي الشارع كانت بيوت صغيرة ولكنها أنيقة بألوان مختلفة ،في كركوك لا تتماثل الأبنية وليس هناك من قاعدة تضبط الشكل المعماري لها .

اندفع أخي الى داخل البيت ، حتى إنه لم يقف ليرحب بنا ،حين ولد كنت في الصف الثاني بكلية الحقوق ،رأيته وهو في الرابعة بعد سنة من تخرجي ،كان طفلا مشاكسا كثير الضجيج ،قالت أمي (نمّونة) جديدة ، كنتم هادئين ومتعاونين ، كانت تقصدني واخواني الاربعة والاختين التوأم

لقد جاء عمر وعروسه-

كان يصرخ بصخب وهو يندفع في الممر الى (الحوش) ،حين أطلت أمي بثوبها الاسود الفضفاض وطرحة من الستان البني على رأسها شعرت أني أنشطر الى كائنين بينهما أخدود عميق يمتد عليه جسر خشبي يصر بفعل حركة الريح التي كانت تجتاح شوارع المدينة التي ما زالت تتثاءب في الصباح الشتوي ، مدت ذراعيها وضمتني بقوة ، لم تقبلني ،

أهلا بعروستنا الغالية-

تقدمت صفية ، تعانقتا ، دخلنا حديقة البيت الأمامية ، فاجأتني شجرة (سدر) تحتل ظلالها الثقيلة فضاء الحديقة وتعطي المدخل بعدا في التاريخ جعلني اشعر بأني قادم من كوكب أخر يستكشف ما في الأشياء من دلالات ،رجفة خفيفة امتدت ببطء من كتفي الى الركبتين ،أمي تمسك بكف صفية وكأنها تخشى اختفائها في

ظلال السدرة الشاخصة الى السماء ترقب القادمين الجدد من نجوم تخطت الثقب الأسود.

كانت أمي تروي لنا ونحن صغار ملتفين حولها والليل يتمدد في الخارج ليعزلنا في ضوء المصباح النفطي ومدفأة إيرانية يتصاعد منها دخان خفيف...كانت السدرة صغيرة تهتز مع الهواء في الفضاء المفتوح وتتأرجح بمرح ،قالت أمي إنها تكره شجرة السدر ,هي عادة مسكن للجن ...سألتها ،هل صحيح إن الجن أزرق اللون ؟ تابعت بعجالة ، قال أبي هذا ،قالت أمي لا إنهم بلون الدخان الرصاصي ، ربما الملكة فقط باللون الأزرق ، كنا في القرية وأمام البيت شجرة سدر كبيرة وفي القرية كان الهواء أشد والليل أكثر وحشة والجن يجوبون الحقول ، في تلك الليلة ....سألت أمي ..اية ليلة ؟ ضربتني على رأسي ..تحلى بالصبر ...الليلة التي مات فيها أخوكم الأكبر...اقتربنا منها أكثر وشعور غامض بالخوف يعقد السنتنا، تابعت أمي بصوت عميق ...كانت السدرة تصدر أصواتا ضاجة ومختلطة فقد كان الجن يمرحون...كانت الغصون تهتز بعنف لأنهم يرقصون بحفلة ماجنة ، الجن مثلنا تماما يأكلون ويشربون ويرقصون أيضا ، كانت أمي تحدثني أنها شاهدت واحدة من هذه الحفلات حينما هاجمهم الطنطل ، الوحيد الذي يخافوه هو الطنطل ،وفجأة بدأوا يصدرون اصواتا مرعبة ، كانوا قد تمكن منهم ما شربوه من (العرق)...كنت وحيدة في البيت فقد كان أبوكم قد ذهب الى إربيل لشراء الخشب ،تملكني خوف ورعب طاغيين ...حضنت إبني الذي كان يصرخ ,كان في الشهر السادس ،خفت أن يضايق الجن السكارى فحضنته بقوة ورفعت اللحاف فوقنا ,حين غادر الجن للنوم كان أخوكم قد فارق الحياة ،

قلت لأمي لماذا تركتم شجرة السدر (تتفرعن) في الحديقة ، قالت أبوك لا يؤمن بأنها ملعونة ويصر على إن النبي محمد هدد من يقطع شجرة سدر عصبّ الله رأسه بالنار،ويؤكد إنها في المنتهى عند العرش الرباني.

قالت أمي –لماذا لم تخبرنا بقدومكم

كان الموضوع مفاجئا ،فمنذ أيام وصفية تلحّ على زيارتكم، كما إني توكلت - لمشتك لديه قضية تنازع ملكية في كركوك ، انتهزت الفرصة

قالت أمي وهي تتنهد-أنت لا تحضر إلا بالصدفة

قلت-ظروف العمل صعبة ،أتابع أخباركم على الهاتف مع حسن وبهيجة

ومعي بالأحلام-

تابعت – سننشغل بهذا الحديث عن عروستنا ...ما يغفر لك أنها جميلة ويبدو عليها إنها بنت عائلة

عائلة ...!ليس لديها غير أمها-

أنت محام ....أعان الله موكليك ....العائلة تربية-

أعدت لنا الشاي وساعدتها صفية في إعداد الافطار ، قالت أمي الغرفة العلوية منعزلة وستنامان فيها

على الغداء كان الجميع يتحلقون حولنا وهم ينظرون الى صفية العضو الجديد في العائلة، أختاي تتطلعان اليها بفضول بيّن فيما كان الاطفال يجلسون صامتين فالغريبة القادمة من بغداد قد لا تعرف لغتهم ولهذا فهم ينتظرون أن تتكلم

شكرا ...فقد أتعبناكم ،وفي الحقيقة يسعدني أن ألتقي بكم-

انفرجت أسارير الاطفال فهي تتكلم مثلهم ،قالت أمي كم يوم ستبقون معنا؟

قلت – يتوقف على مسار القضية في محاكم كركوك

حين قامت صفية لتغسل يديها قالت أمي وهي توشوشني –مم تشكو العروسة؟

لا شيء....هل لحظت أمرا غريبا ؟-

أجد في عينيها قلقا ممضا وكأنها تكتم سرا يتعبها-

كنت أود أن أحدث أمي بموضوع الهجرة ولكني أحجمت

لا ...إنها حزينة لفقدانها والدها وبقاء أمها وحيدة-

.لم تعلق ولكن كان واضحا إنها غير مقتنعة

كان علي أن أعمل باتجاهين وبسرعة، في الصباح الباكر ذهبت الى صديق منذ أيام الدراسة الثانوية ، يملك الان معرضا للسيارات ،قلت أرغب ببيع سيارتي وأود اجراء عملية البيع بسرعة ،قال سأشتريها ...على عجالة اتفقنا على السعر وعلى موعد التسليم ، وقعت عقد البيع ، قال إنه سيقوم بإجراء عملية تحويل الملكية ،في الساعة الواحدة ظهرا كنت في مطعم أ خذت عنوانه من محام سافر معظم اقربائه الى اوربا ....تم بسرعة الاتفاق على ترتيب السفر الى اسطنبول وحجز في فندق بشارع استقلال جادة سي لأسبوع ، وهناك علي انتظار المكلف بنقلنا الى المركب الذي يغادر الى اليونان عن طريق بحر أيجة ، دفعت (العربون) على أن أدفع الباقي يوم مغادرتنا كركوك.

كانت صفية تنتظر قلقة ، أما أمي فقد كانت عكرة المزاج ، فيما يراودها إحساس بأن شيئا ما يجري في الخفاء ، حين تشغلها فكرة ما وتتملكها يتغضن جبينها وتدخل في حالة من الصمت العميق ، طفلا بهيجة كانا صامتين وهما يجلسان على الارض يستشعران حالة الترقب ،كانت بهيجة قد ذهبت مع زوجها الى جامعة صلاح الدين لإكمال مستلزمات مناقشة رسالة الماجستير التي تقدمت بها الى كلية الحقوق .

حين تعلقت أنظار صفية بوجهي غمزتها بشيء من المرح ،

قالت أمي –أرجو أن تكون قد أنهيت مشاغلك

ذهبت الى مديرية الشرطة والى المحكمة ....أحتاج الى بعض الوقت-

كان أبوك يقول عمر ينظر دائما الى الأمام وقد لا يلتفت خلفه، لم أكن افهم ما - يقصده ، ولكني الان أعرف ما كان يعنيه !

شعرت بشيء من الضيق ولكني تماسكت ,قلت لصفية سأصعد لأغير ملابسي

قالت-ساتي معك

حين شرحت لصفية ما حصل ابتسمت بارتياح

كان مساء نديا ،حين غادرنا الدار ،قلت لأمي سنذهب الى إربيل لوجود علاقة للقضية التي أتابعها بشرطة اربيل ، قالت أمي لماذا لا تترك العروس وتذهب وحدك ما دام الأمر يتعلق بالعمل ، قلت لم تتح لها الفرصة لزيارة اربيل وقد نذهب الى السليمانية.

كانت صفية صامتة ونحن نضع حقيبتين صغيرتين في السيارة وأكتفت بتقبيل رأس أمي التي كانت مغيضه فهي غير مقتنعة بأن الأمر بهذه البساطة وهي تتحرك معنا فيما شيء آخر يعتمل في داخلها ، كانت صفية تتوزع مشاعرها بين القلق من مستقبل مجهول ربما ستعترضه الكثير من المصاعب ، والحيرة من عدم وجود بديل أكثر مدعاة للركون اليه ،

كنت في طريقي الى إربيل لتسليم السيارة ، وعلى أن نغادر اربيل الى اسطنبول بعد يومين ،كنت سعيدا بأن كل شيء يجري حسب ما خططت له ، سعادة مشوبة بقلق ،وفي الحقيقة لم أكن واثقا إن كل شيء سيجري حتى النهاية كما أردته،

ونحن نعبر الحاجز الكردي باتجاه اربيل شعرت برجفة خفيفة من البرد تهز جسدي كله ،كنت كما في بغداد حين أخرج يوم الجمعة صباحا لأشذب أشجار حديقتي الصغيرة في بداية شهر نوفمبر حين تفاجئني موجة برد عابرة فأضع القميص ثانية على صدري وأتوقف برهة عن العمل .

مطر خفيف يتساقط معابثا السيارات التي على الشارع فيما تلوح اشباح البيشمركة على المرتفعات القريبة وهم يراقبون الشارع والسيارات العابرة ،

أشعر أني بحاجة الى الشاي -

قالت صفيه وهي تشد معطفها الخفيف وتشبك ذراعيها على صدرها

تابعت-لقد مرت الساعات الأولى من مشوارنا الطويل ،

سنركن الى المطعم القادم-

استقبلنا على الباب شاب بملابس الكرد القومية وهو يضع على يده بضع ارغفة من الخبز ، وحين عرف إنا لا نعرف اللغة الكورية قال - تفضلوا

كان اللفظ غريبا عل صفية فابتسمت همست في أذنها – لا تظهري اي استغراب فقد يفسره انك تسخرين منه

فهمت-

قالتها بجدية مبالغ فيها ، لمست كفّه ، شدها غطاء الرأس الذي يضعه الصبي وكأنه عمامة بروح سريالية ، تتدلى حول وجهه شرائط سوداء مضفورة بعناية وفي نهايتها عقدة صغيرة ،

لم يكن في المطعم غيرهما

هل ترغبان بالإفطار-

كان يجد صعوبة في قول ما يريد باللغة العربية ، تذكرت ابنة صديقة لها ،كانت في الشهر الثامن عشر ، تجلس على أرضية الصالة فيما كانت مجموعة من النسوة يتحدثن في آن واحد ، كانت الطفلة تعاين دمية من القماش ويبدو إن الحديث المتشابك أزعجها ، رفعت رأسها نحو صفية التي كانت الأقرب لها وبدأت تتحدث...لم تفهم صفية ما تريد ،كانت عباراتها مبهمة ونبرتها توحي بالغضب ، أعادت كلامها ،رفعتها صفية وقالت :ماذا تريدين أنا لا افهمك

حدقت الطفلة بها ثم أرسلت رذاذا بوجه صفية ، كان ما فعلته احتجاجا على عدم فهم ما تقوله ، ابتسمت صفية وهي تنظر الى الصبي الذي وضع على المنضدة رغيفي خبز ساخنين واربع بيضات مسلوقة وبعض الخضار ، تصورت لو قالت إنها لم تطلب البيض وانها لا تفهم ما يقوله ....ماذا سيفعل ؟

قال عمر -سنصل اربيل خلال نصف ساعة

لم ترد ، كانت منشغلة بالتفكير بهذه الرحلة التي لم تكن تشغل ولو حيزا ضيقا حتى في كوابيسها ، إنها تثق بعمر فهو رجل عملي وصادق كما إنه لا يميل الى السخرية ،عليها أن تترك هذه الهواجس وسيكون كل شيء على ما يرام ، وهي متمرنة على اكتشاف المخالفة إن كانت بنتيجة الخطأ أو السهو أم أنها بسبب التلاعب المتعمد ،عمر يعاملها باحترام وبشفافية وهي تؤمن في قناعتها إنه قدرها تماما كما هي سدرة أم عمر ،كانت مغمضة العينين وهو تجري استعادة ذكرياتها ،حين توقف عمر فجأة فاندفعت الى الامام، اعتذر عمر ....كان المطر الخفيف قد توقف ولكن الشمس كانت تتخفى وراء غيوم تعبر السماء مسرعة

أوراقك-

كان مسلحا يقطع الطريق وقد وضع مخروطين ملونين بالاصفر الفسفوري الى جانبيه

أخرج عمر رخصة السيارة وإجازة السوق وهوية الاحوال المدنية ، تفحصها المسلح

هل لديك معارف في إربيل-

نعم ..كاكا عثمان ابو سروة وهو خياط في القيصرية-

هل لديك رقم هاتفه؟-

أخرج عمر دفترا صغيرا من حقيبته اليدوية وردد رقم الهاتف، قال المسلح

افتح شنطة السيارة-

حين ودع المسلح وهو يرفع أحد المخروطين ويتنحى جانبا ليسمح للسيارة بالمرور

قال عمر – نحن في مدخل اربيل ولهذا يجري هذا التدقيق

أمنت صفية على كلامه بإيماءة من رأسها فيما كانت تتفحص البيوت على الشارع الواسع الذي بدأت الشمس تتمدد على امتداده وتفيض على البيوت المبنية من الحجر الابيض فكرت صفية إنها بداية مقبولة لمشوار مجهول،

انعطف يسارا ليقف عند مدخل فندق في الشارع الجانبي ، لم يتقدم أحد ، انزل الحقيبتين وأغلق السيارة وصعد درجا صغير ليواجه بهو الفندق الذي انتشر فيه أثاث قديم من طراز تراثي بالوان كابيه المواجهة مكتلب الاستعلام ، خلفه كان رجلا بخدين سمينين وبشرة حمراء ، يتطلع باستفهام وعلى شفتيه ابتسامة لم تعبر عن أي معنى ،لم يسأل عمر ، ربما يفكر إنه من المفروغ منه إن هذا الزائر جاء ليبيت في الفندق فلماذا يضيع وقته بالسؤال، وصاحب الحاجة اولى بها

قال عمر –لدينا حجز باسم المحامي عمر من بغداد بواسطة كاكا عثمان الخياط

نعم-

كان ينظر في السجل الكبير أمامه

ومدفوع ثلاث ليال نقدا-

لم يرفع نظره عن السجل

الاخت زوجتك

نعم-

عقد الزواج رجاء-

يمكن أن تستعملا المصعد الى الطابق الثاني غرفة 11-

سلم عمر مفتاح الغرفة

لم تتوقع صفية أن تكون الغرفة على هذه الدرجة من النظافة ومن الواضح انه قد رش فيها عطر ورد بري حيث ما تزال بقاياه تنتشر في الغرفة ،عند الشباك الذي تنسدل أمامه ستائر ثقيلة زرقاء بدت زاهية مع طلاء الجدران بلون ابيض ،

شراشف السرير العريض كانت نظيفة ومنشئات ..... أربكها هذا التناقض بين بهو الفندق التراثي والغرفة التي تقف فيها ، كان عمر يعلق الملابس ، قالت صفية

اشعر رغبة في الاستلقاء-

يمكنك ذلك لأني سأقابل كاكا عثمان للوقوف على الخطوة التالية وللاطمئنان - الى إن كل شيء على ما يرام

كانت ثقتها بعمر راسخة وهي مقتنعة ان زواجها لقاء ناجح ،يمنحها القوة حين يحدثها بهدوء عن مشاكلها في العمل طارحا حلولا بسيطة وواضحة تبعدها عن الشعور بالضعف وتملأ روحها برؤية مشرقة للغد،

حين عاد من كاكا عثمان كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة بقليل ،وصفية بين النوم واليقظة، الصمت يفرض جوا ثقيلا

. قال بمرح –يمكن أن نحتفل فكل شيء يسير بسلاسة ، كنت واثقا فأنت إيقونتي

ابتسمت وهي تتخيله ملاكا يغرد بمرح وينشر جناحيه حولها ،كانت دائما قريبة من خيالاتها الروحية ، تجد فيها ملاذا تطمئن فيه الى سلامتها ،

اتكأت على مرفقيها ووضعت رأسها بين كفيها فانسدل شعرها يلامس الشرشف الأبيض ، فيما عرضت فتحة قميص النوم اكتناز نهديها السمراوين

أين ؟-

فاجأ السؤال عمر وهو مأخوذ

أين ماذا ؟-

أين نحتفل ؟

الفصل السادس

قال عمر – لن نتناول فطورنا في الفندق لأننا مدعوين عند كا كا عثمان

في الثامنة والنصف جاءهم كا كا عثمان ، كان في العقد الخامس من عمره ،حاد الملامح مما أكسبه جدية يمكن ان تشكل الانطباع الأول عند من يقابله لأول مرة

، في عينيه تساؤل ممض ولكن ليس من السهل التكهن بسبب ذلك ،مد يده مصافحا عمر

حين بدء يتحدث لحظت صفية إن لغته كانت بلهجة بغدادية صافية ، حتى إنه يمد الكلمات ببطء تماما كما في الرصافة ، قال عمر كنا طلاب في الابتدائية في كركوك وانقطعت علاقاتنا لانتقال عائلته الى بغداد حيث سكنوا في الاعظمية ولكنه لم يكمل دراسته ،كاكا عثمان كان طالبا مشاكسا يفتعل المقالب لزملائه ولمدرسيه ،في المدرسة كان يذهب الى دجلة يفاخر بانه يعبره عشر مرات يوميا ثم انتقل الى كرة القدم ،وفي مباراة بين الاحياء البغدادية تعرفت عليه ثانية ولكن سرعان ما اختفي ، وعلمت إنه غادر الى إربيل ،

كان كاكا عثمان صامتا ،اختفت روح المشاكسة والتمرد ،تظل الذكريات المثيرة طافية على السطح

قال كاكا عثمان – وأخيرا قررت الرحيل

كانت نبرة صوته عميقة تحمل شيئا من اللوم ، فقرار الرحيل وعلى هذه الصورة يعني قرارا سياسيا جاءت قناعته متأخرة ، كاكا عثمان الذي قاتل في صفوف البيشمركة في ظروف بالغة القسوة في المغارات المنعزلة وفي ليالي تتجمد فيها أطرافه وهو يختبئ خلف صخرة في العراء ،كانت كسرة خبز يتقاسمها مع زميله كافية لنهار كامل ،بعض الذكريات موجعة وهي التي تظل في أعماق الإنسان كان قرار رحيلة مع بداية وعيه باستحالة الاستمرار في إغماض عينية عمّا يجري حوله

فكرت صفية إن الوعي حالة كالإلهام يتفجر فجأة ولكنه قد يأتي بسبب لحظة طارئه ،أدارت رأسها تتطلع الى القلعة التاريخية أمامها تنتصب فوق تلة عبر الشارع ، هي أيضا من مسببات الوعي ،زبائن المطعم كانوا منشغلين بال(القيمر) البلدي والعسل الذي ينساب من بين أصابعهم ،طلبت صفية جبن(أوشاري) وكوب كبير من الشاي ، نظر اليها النادل باستغراب و لكنه لم يعلق ، قال عمر

،هل هو لذيذ ؟قالت صفية اسأل كاكا عثمان ،رأته لأول مرة يبتسم بشيء من المودة، زوجتي من قرية في ضواحي إربيل تخبئ ما تصنعه من جبن أوشاري حتى يأخذ المدة اللازمة ، الأولاد لا يتركونه ، يبحثون في كل الزوايا ،ربما لأنه مخبأ ، أنا شخصيا غير مهتم به

قال عمر –سأتناوله وعلى الله التكلان

قال كاكا عثمان –لن تندم

شعرت صفية بالارتياح لأنهما غادرا السياسة والذكريات المحبطة ،حين يجتمع رجلان فما يدور بينهما النساء أولا والسياسة ثانيا ،الحديث عن الطعام يفتح النفس للأكل

قال كاكا عثمان سيارتك التي تعرضها للبيع ،سأشتريها أنا

قال عمر- لا تحرج نفسك

ليس في الامر إحراجا فقد قررت أن أعطي إبني سيارتي ولهذا أنا بحاجة الى - أخرى وسيارتك ما تزال جديدة

كانت صفية ترقب المارة ، على الرصيف حيث يقع المطعم، لم يكن زجاج واجهة المطعم نظيفا ،ولكن لم يؤثر على رؤية المارة بهيئاتهم المختلفة ،مع ارتفاع الشمس التي عبرت القلعة لتغمر الشارع بفيض من شعاع دافئ أثار حماس الباعة المتجولين واصحاب العربات المتوقفة على الرصيف تعرض بضائع متنوعة ، فاندفعوا يعلنون عن بضاعتهم بلغة منغمة وأقرب الى السجع،

حسنا ...ارجو أن يكون الإفطار قد أعجبكم ؟-

قالت صفية –كنت أشتهي جبن أوشاري

قال عمر – لقد وجدت انه يكون لذيذا مع الشاي

الحمد لله ....سنمر أولا على محل الخياطة لأفتحه للعمال ثم نذهب الى مكتب - السفريات

في الطريق كانت عينا صفية معلقتان بواجهة المحلات حيث تعرض سلعا متنوعة ومن مناشئ مختلفة ،أثار اهتمامها أسلوب العرض الجميل للأحذية النسائية وأشكال الموديلات التي تعرض الملابس الفاتنة، فيما كان عمر وكاكا عثمان يتداولان حديثا وقد بدت على ملامحهما الجدية ،ابتسمت وهي تحلم بامتلاك الحذاء الاسود بالكعب العالي والحقيبة من صناعة ايف سان رولان، معاونة مدير القسم كان زوجها كثير السفر و لا ينقضي شهر إلا وتدخل القسم

بطقم أوربي وحذاء جلد بتصميم مدهش ، وفي يدها شنطة من ايف سان رولان، كانت تشعر بغيرة وهي تعلم ان هذا يشعرها بالذنب ، راتبها لم يكن كافيا ولكن البيت الذي تملكه العائلة وتستأجره السفارة السويدية للسكرتير الثاني في السفارة يؤمن لها دخلا كافيا بعد مواجهة مستلزمات الاسرة الصغيرة والتي لا تواجه مصرفات إضافية ،

كان عمر يقف الى جانبها وهي تتطلع الى فاترين أنيقة تعرض مستلزمات (كريستيان ديور) كانت تحلم بالعطر الجديد بقنينة بلون بني داكن ،

قال عمر –في أوربا ستشعرين بالملل من الحاح الشركات بعروض الاسعار المخفضة

كانت تشعر إنها قريبة من مستقبل بحياة هانئة وسعيدة ،أشاع هذا في نفسها راحة فهي ستحقق أمرا خارقا ، ستنتقل من بغداد بجوها الخانق حيث يجبر الجميع على الركوع بصلاة تحمل الاهانة لصنم صنعه الخوف وبشعور بهذه الاهانة شعور لا ضرورة له ،ولكن لتأكيد الاحساس بالإهانة المريرة ،ستنتقل الى أوربا حيث تستعيد انسانيتها وشعورا بأنها تعيش ،ظلت مسحورة بما سمعته في الهايد بارك في لندن حين زارتها في الثمانينات مع مجموعة من العراقيين برحلة سياحية ،حين التفتت الى زميله كانت تقف الى جانبها يستمعان الى متحدث وهو يقف

على كرسي خشبي (لو يري الرئيس القائد حفظه الله هذا المشهد) قالت زميلتها صفية أنت في لندن...

قال كاكا عثمان - نحن الان عند مكتب السفريات

على المنضدة التي لها سطح زجاجي مجموعة من أعلام الدول وشركات السياحة لإعطاء الانطباع بأن المكتب يتعامل مع العالم وهو موضع ثقة ،وراء المنضدة تجلس فتاة في أوائل الثلاثينات من عمرها تبدو عليها نضارة طافحة بالرضا ينسدل شعرها الاحمر الى كتفيها وتلف رقبها بشال متعدد الالوان، كانت تزرر جاكيت قصير يشد خصرها ويبرز نهديها باستدارة مثالية.

توجهت الى مخاطبتهم باللغة الكردية تشي نبرة صوتها بمودة مرحبة ، قال كاكا عثمان :ضيوفنا من بغداد

أهلا وسهلا...يمكنكم الجلوس رجاء-

جلس ثلاثتهم قالت الموظفة –شاي أم قهوة

فكر عمر إن الفتاة مليئة بالحيوية وأنها يمكن أن تصحب وفد سياحي عبر الجبال وفي هذا الجو البارد ،كانت نظرتها ودودة بعينيها الواسعتين وهي تضع يديها على امتداد السطح الزجاجي

بماذا يمكن أن أخدمكم-

-تذكرتي سفر الى اسطنبول وحجز فندق في استقلال جادة سي-

-هناك فنادق متنوعة ما هو مستوى الفندق -

ثلاث نجوم على الاقل والسفر مساء الغد-

-الفندق 45 دولار لليلة الواحدة أما الباص البولمان والمناسب بالتدفئة ووجود تواليت ومجلات وصحف وقهوة أو شاي مجانا لنفرين 125 دولارا -

قال كاكا عثمان –هذا بالتخفيض الذي تمنحوه لي

ابتسمت الفتاة وتوجهت اليه بالحديث باللغة الكردية

قال –شكرا

قال عمر -في الفندق ،أرجو الحجز لاسبوع

سيكون المجموع 440 دولارا-

أخرج عمر محفظته

قالت الفتاة المبلغ مدفوع

قال عمر-لا المبلغ غير مدفوع

توجه الى كاكا عثمان –امتناني العميق ولكن ارجو ان تسمح لي بالدفع ،سأظل مدينا لك وأنا في سفر غير متضح النتائج

كانت الفتاة تنتظر بنفاذ صبر فقد كان هذا النقاش يستثير فضولها ، ولكنها كانت تتظاهر بابتسامتها المراوغة بعدم الفضول

أخذ عمر كاكا عثمان جانبا ووشوشه :كا كا المبلغ مدفوع اصلا من المبلغ الذي دفعته للمهرب في بغداد ،فالترتيب أن أحتفظ بألف دولار اخصم منه السفر من اربيل الى اسطنبول واجور الفندق هناك لأسبوع وعلى أن لا يتجاوز 500 دولارا والمكتب يطلب 440 دولارا ،

عاد ليسدد الحساب للفتاة التي حررت له وصلا وسلمته تذكرتي السفر والحجز في الفندق

كانت صفية تتطلع في المكتب الصغير الأنيق وتفكر إن محطة أخرى قد تم تجاوزها، الهجرة ...كانت موجة بحرية كبيرة ولكنها حتى الان هادئة تتمدد رخية ومدهشة تسيطر على مشاعرها كأنها في حلم متنوع المشاهد المختلطة على نحو يشكل لوحة باذخة في ألوانها ،لحظت إن عمر يتصرف بتصميم وكأنه يعرف

تماما ما يريده وما هي الخطوات اللازمة لتحقيق ذلك ، شعرت باعتزاز وهي تراقب ابتسامته المعبّرة عن رضاه عما يحصل وهو يستلم الأوراق من الفتاة .

قال كاكا عثمان – سأحضر لآخذكما الى محطة الباصات ، تذكر ان الشركة التركية تلتزم بالوقت وحركة الباص في موعدها المثبت على الإيصال والسائق لن يتردد بالتحرك حتى لو حضر خمسة اشخاص

في الساعة الرابعة والنصف حضر كاكا عثمان ومعه كارتون صغير قال إن فيه (متاعا) للطريق فالرجلة طويلة ،

في الساعة الخامسة ، وفي مساء غائم ولكنه لم يكن ممطرا ، تحرك الباص نحو الحدود التركية

كانت مقاعد الباص مريحة ،فهي عريضة ووثيرة ومزدة بوسائد صغيرة وبطانية، ورغم إن الطقس كان شديد البردة إلا إن جو الباص كان يبعث على الراحة والاسترخاء.

امسك عمر بكفي وهو يربت عليه برفق

-سننتقل الى عالم آخر ،عالم ليس فيه عبد الغفور ولن نردد بعد الان (حفظه الله ورعاه)

كانت تفكر إنها فعلا ستنتقل الى عالم أخر ولكن ليس لنفس الاسباب ,عالم من الحرية والامن والضمان بغد تحقق فيه أمنيات بلا حدود تحقق به وجودها الإنساني ، كيف سيكون احساسها بجو الحرية ، وكم سيستغرق من الوقت لتكون الحرية جزءا من كينونتها ؟، والسؤال المهم هل ستعرف كيف تمارس هذه الحرية ؟ شعرت برغبة في أن تقرأ ، مدت يدها الى سلة المجلات والصحف ، كانت مجلة تركية عن المودة شعرت برغبة في أن تغفو ورتم مسير السيارة يساعدها ،رفع عمر يده وأسند رأسها الى الوسادة الصغيرة ونشر البطانية على فخذيها ،الأحلام لا تعترف بالحدود الجغرافية تعبر معها فوق سلسلة من الجبال

على جانبي الطريق المكسوة دائما بالخضرة تتلاحق صور لا رابط بينها ولكنها لا تسير باتجاهات متوازية لأنها تلتقي دائما بنهاية مشتركة،

ربت عمر على كتفها برفق ، فتحت عينيها بتكاسل،

قال عمر –هل كنت في أحلام ثقيلة

-لا ..... ولكن لماذا ؟-

كان على وجهك تقطيبه عابسة -

تطلعت الى الجبال التي تمتد بمستويات متباينة ، شعرت برغبة بكوب من القهوة، أغراها البخار المتصاعد من كوب المرأة التي تجلس مع ابنتها في الجانب المجاور لكرسيهما ،وضعت الكوب تحت أنفها لتتمتع برائحة القهوة ،شعرت براحة حين وضع عمر يده الدافئة ليحتوي كفها التي كانت تستقر ظامئة الى الحنان ،تشعر بأنوثتها وهو يعصر كفها بضغطات متتالية وكأنه يعبّر عن لها عمق مشاعر رجل تجاوز الأربعين بقليل ،شعرت برغبة أن تقول له لقد صنعت لنا مستقبلا مشتركا ، كم أحبك ؟

استغرقت الرحلة ما يقرب من 24 ساعة مع ثلاث توقفات في الطريق ،طوال الليل كانت نائمة ، كان عمر صاحيا يشعر بخدر في قدمية ولتثاقل في أجفانه ولكنه لم يجد طرقه الى النوم تدور في فكرة مئات الاسئلة ويحاول أن يجد جابا لها أو يجد البديل ، يتخيل الموقف الذي قد يواجهان وتداعيته ويلتمس الحلول ، شعر بصداع فطلب من معاون السائق حبتي اسبرين، قال لديه برستمول ،شرب ستة أكواب من القهوة ، كان الظلام أكثر كثافة وهو يغطي الجبال والاشجار ويوحي بالوحشة ، لم ير طيرا ولا حركة حيوان بري ،وحتى حين يستدير السائق فيصدر الباص صوتا حادا لم تكن هناك طيور فتفزع هاربة ، أو ربما كانت ولكنها تعودت مرور السيارات كل ليلة فاطمأنت

وأنتبه الى إن المطاعم بعد عبورهم الى ديار بكر، كانت كبيرة ومنظمة على نحو لا يسمح بالمقارنة بينها وبين المطاعم على الطرق الخارجية في العراق

قال عمر وهو يقدم لموظف الاستقبال –الحجز لمدة سبع ليال

نظر اليه الموظف الذي كان طويل القامة بوجه صغير دائري وعينين مراوغتين وقال بالانكليزية –أهلا

شعر عمر إن ا لرجل يدقق فيه، طلب جوازي السفر وبعد تسجيل البيانات أعادهما فيما ظلت عيناه المراوغتان تدوران بفضول

الطابق الخامس غرفة 27 ، المصعد الى اليمين-

كانت غرفة صغيرة ولكنها كافية، في المدخل وعلى اليسار الحمام والتواليت ، السرير الخشبي الى الحائط مقابلا الشباك، دوالي للملابس من الخشب البني اللامع وثلاجة صغيرة ،طلب شايا لأثنين فيما كانت صفية تدخل الحمام لتأخذ (دوشا)

لم أرتح لموظف الاستقبال، كأنه يقول أنا أعرف ما تخططان له-

ربما-

قال عمر وهو يرشف شايه ببطء

تطلعت صفية الى الشارع الضيق في الاسفل، كان يضج يضج بالباعة والمطاعم ومحلات (الإكسسوارات)

قالت- الشارع مسلّ ..... فيه كل شيء

قال عمر-لسنا بحاجة الي شيء

أعرف-

لم تتضايق فهي تعرف إن القادم من رحلتهم هو الأشد صعوبة وخطورة أيضا ، في الأسفل كان تحرك مجموعات من المارة أو المتبضعين أشبه بشريط سينمائي

، المسافات بين الذين يتحركون وحتى بين المتلكئين أمام واجهات المحلات التي تبدو محكومة بفسحة للخصوصية ،رغم إن أحدا لم يكن يعير هذا الموضوع اهتماما، شعرت أنهما يصنعان مستقبلهما وإنهما كيانان يتحركان بفعالية في خط مستقل عما تتحرك فيه هذه المجموعات بالأسفل ،لأنهما يعرفان ما يفعلان فقد اختاراه ورسما مساره بدراسة مشتركة ،

قالت –بعد أن نأخذ شيئا من اراحة ، علينا أن نكتشف اسطنبول

-سنبدأ بالشارع السياحي فهو على بعد امتار ، ولكن قبل ذلك سأسأل - الاستعلامات عن أهم المناطق

-متى ستلتقي بصاحبنا-

-المفترض ان يتصل بي غدا-

-هذا يعني انه ليس لديك عنوانه-

-لا .....تدركين إن هؤلاء لا يعطون عناوينهم-

-صحيح-

الفصل السابع

كانت صفية مستلقية على الفراش تنظر الى سقف الغرفة المشغول بزخرفة إسلامية بالجبس الابيض، تخالس النظر الى عامر وهو يحلق ذقنه ،كان مشغولا بشيء آخر ، كان يمرر ماكنة الحلاقة بالية ورائها خبرته بتضاريس وجهه، يده .تتحرك على وجهه بصورة مدهشة.

دق جرس الباب ، نهضت بسرعة تسوي فستانها وشعرها ، أحد عمال الفندق كان وسيما يرتدي طقما رسميا أزرقا وينتشر شعره الأحمر بكثافة ، سلمّها رسالة بمغلف صغير في زواياه أربع زهور برية ميزت منها (شقائق النعمان) ،أخذت المظروف ، دفعها الفضول أن تشمّه ،ضحكت من تفكيرها المراهق

قال عمر- ماذا يريدون ؟

-رسالة باسمك -

إقرأيها-

إنها باللغة الانكليزية ...عزيزي عمر سأمر عليك في الفندق غدا الساعة - السادة مساء ، المرسل مراد أوغلو

المهرب-

تابع-هذا يعني اننا أحرار حتى مساء الغد

خرج من غرفة الحمام

سنتصرف برفاهية-

ماذا تعني-

أنت مدعوة لاحد أفضل المطاعم في اسطنبول وقد حجزت لشخصين وأنت في - الحمام

لقد اتفقنا أن نوفر-

صحيح ولكن ليس في هذه الليلة-

المطعم تصعد اليه بواسطة سلما خشبيا عريضا مفروشا بسجادة حمراء وعلى امتداد السلم الى أعلى كانت صورا لشخصيات عالمية سبق أن تناولت طعامها فيه، كانت الصور مؤطرة ومعتنى بتعليقها ، في الأعلى صالة كبيرة فخمة تضم عددا من الطاولات الدائرية تحيط بها كراس من خشب الزان بمقاعد جلدية وثيرة،

وهما يدخلان الصالة عطر خفيف تحمله دفقات هواء يتدثر برطوبة، يملأ المكان فيثير فيهما انتعاشا طريا

أجالا نظرهما بالحضور وهما يتبعان نادلا بيده قائمة بأسماء الذين تم تثبيت الحجزلهم،كان قد تجاوز الخمسين بقليل يربط شعره الاشيب خلف رأسه على طريقة ذيل الحصان ،فكرت صفيه إن ظهور مثل هذا الرجل في أحد مطاعم بغداد سيكون حدث الموسم ، أشار الرجل الى طاولة عند الشباك المقابل للسلم حولها ثلاث كراس ،قال عمر-المطعم رومانسي

كانت الإضاءة (المعتمة) والجو الدافئ يشيعان شعورا بالرضا والاسترخاء ، كما كانت الوشوشات التي تحتل المسافات بين الطاولات تحمل أصواتا متباينة ونبرات منخفضة ومتنوعة فقد كان تباين الفاظها يشي بتنوع اللغات التي تعبر عنها

قالت صفية –لا أدري .... أشعر إن المطعم يحمل طابعا ارستقراطيا رسميا

ابتسم عمر – أرستقراطيا مفهوم ، ولكن رسميا (لا تمشي)

-أعني إغراقا في الأرستقراطية-

قال النادل –أرجو ان تكونا قد اخترتما ....أولا ماذا تشربان

قال عمر – كأس نبيذ أبيض جاف ....شاتونوف

والسيدة ؟-

سفن أب ...أبيض أيضا ولكن رطب !!

ابتسم النادل مجاملة

والطعام-

قال عمر –إسمحي لي أن أختار ...سيكون مفاجأة-

التفت الى النادل –سمك ....المشوي بالملح مع سلطة الخضرة

-هل تفضل نوعا من السمك-

-سمك بحر ايجة-

ابتسم النادل وقال –أنت تعرف طعامك سيدي

كانت صفية تتطلع الى عمر باستغراب فهي لم يسبق لها أن سمعت عن شوي السمك بالملح ، كانت أمها تحدثها عن شوي السمك بالطين ولم تكن تتصور إنها طريقة مناسبة ،كانت أمها تحاول اقناعها إن الطين يتحول الى فخار والسمكة لا تتعرض للتلوث وتظل كما هي ،

حين استعرضت النسوة في المطعم وجدت انهن اجمالا أنيقات وبعضهن غاية في الجمال ، استطاعت أن تلحظ تباينا في ملابسهن ، التركيات وبعض العربيات يرتدين ملابس سهرة بعضهن بنصف كم وأخريات بدون أكمام يستعرضن اكتافهن المكتنزة ، أما الأجنبيا ت، والتي شخّصتهن من استعمالهن اللغة الانكليزية مع مضيفيهن ، كنّ يرتدين بنطلوات الجينز وبلوزة ، وفكرت .(لون آخر من الأناقة)

لوح عمر للنادل بالحساب ، كان المجموع 125 دولارا فكرت صفية إن وجبة العشاء تساوي السفر من اربيل الى اسطنبول !!قال عمر ،علينا أن نستمتع بوجودنا هنا

قالت صفية – لا شك إنها ليلة مدهشة بأجوائها الفريدة ، المطاعم الرخيصة تبعث على التوتر بجوها المشبع بروائح الطعام وبزبائنها الذين لا ينفكون يحدقون بشراهة الى النساء ، ربما أكثر من شراهتهم البدائية وهم يتناولون طعامهم ،ويسود جو من الصخب والحديث المختلط ،

قال عمر –اختلاف الزبائن هو الفارق

في الطريق الى الفندق قال سائق التاكسي

حضراتكم من ايران-

قال عمر- من العراق

التفت السائق وعلى وجهه انطباعا بالاندهاش – صدام حسين

الرئيس القائد ...نعم-

لم يعلق السائق ولكنه فهم السخرية في كلام عمر ، التعوَّد يكرّسه الخوف الذي لا تمنعه الحدود من ملازمة الأفراد ، هو شجرة لكل المواسم ،ويحتاج الى الزمن،

كان عمر يرقبها بنظرة واثقة وحنونة وهو يمسك بيدها لتغادر السيارة ،شعرت بأنها أكثر ثقة بالأمل الذي يتمدد في خيالاتها ليرسم شرفات المستقبل الذي تحلم به، ألقت نظرة عميقة نحو عمر، أحست برغبة في تقبيل ذقنه المستدير الصلب .

كان مراد اوغلو دقيقا في مواعيده فعند السادسة كان امام مكتب الاستقبال .نزل عمر لمقابلته

-بعد غد احضر الساعة الخامسة صباحا لاصطحابكما الى إفاليك وهي مدينة - ساحلية جميلة ، ستسافران بسيارة سياحية مستأجرة باعتباركما سائحين في شهر العسل ، تذكر هذا ، وفي الساعة الثالثة صباحا من اليوم التالي ستكونان مستعدين للذهاب الى الباخرة الراسية على الشاطئ والتي تغادر في الثالثة

والنصف الى مدينة ساحلية يونانية صغيرة هي ميتي ليني حيث تقلكما مع الاخرين بباص الى مدينة ليسبوس ومنها الى هولندا بالقطار اهم ما عليكما أن تتذكراه ، عدم اعطاء تفاصيل الطريق أن تم كشف أمركما وعدم معرفتكما بأسماء المهربين ،وبالمناسبة إسمي ليس مرادا ولست من آل أوغلو ،كما ان عليكما ان تتخلصا من اية أمتعة لا حاجة لها ، احرصا على النقود التي معكما .

كان يتكلم وكأنه يقدم تقريرا القاه عشرات المرات ، لحظ عمر إن عينه اليسرى تطرف باستمرار فيما عينه اليمنى تدقق في المتواجدين في صالة الاستقبال والداخلين الجدد ،ورغم ان درجات الحرارة كانت منخفضة فقد كان مراد يمسح رأسه الخالي من الشعر باستمرار ، ربما يكون هذا تعبيرا عن التوتر والخوف الذي يستشعر بسبب طبيعة عمله

-حسنا كل شيء واضح ولكن لدي بعض الاستفسارات البسيطة-

-لا بأس ... بقدر ما أعرف سأجيب -

كانت لغته الانكليزية سليمة ولكنها لم تتخلص من النبرة التركية المكثفة والعالية ,لحظ عمر ان من يتكلم اللغة الانكليزية من الاتراك الذين صادفهم لا يستوعبون ترددات أصوات اللغة الانكليزية فيأتي حديثهم أعلى نبرة

-كم ساعة يستغرق سفرنا الى إيفاليك-

حوالي 4 ساعات ومع التوقف في الطريق لتناول القهوة مثلا ،أربع ساعات - وتصف

-ومن ايفاليك الى ...المدينة اليونانية على بحر ايجة-

حوالي الساعتين ،وللإيضاح الباخرة الصغير جديدة وسيكون معكم ربما - عشرة أشخاص آخرين ، ومن ميتي ليني بالباص الذي يهيأه جماعتنا في اليونان الى ليسبوس ، وبالطبع لن يتركوكم قبل ان يؤمنوا لكما تذكرة السفر بالقطار ويوصلوكما الى مقعديكما....بقي لي أنا أمر واحد ....باقي ا لمبلغ ،

سلمه عمر 550 دولارا وقال –حسب الاتفاق قيمة تذكرتي السفر من اربيل واجور الفندق تم حسمهما....هل تريد الوصولات؟

شكرا .....الى الرابعة صباحا -

مسح رأسه وجال ببصره في الصالة وخرج مسرعا

حين حدث عمر صفية بما دار بينه وبين مراد شعرت بانقباض وتغيرت سحنتها المتفائلة والساحرة الى تقطيبه جادة وكأنها تواجه الامر برمته الان فقط، قطعا لم تشعر بالندم ،هي إنسانة ناضجة وليست صبية دونما تجارب ، وهي اختارت هذه المسيرة بكل إرادتها ، أكدت لنفسها إن عمر يعرف تماما ما يفعل ،ولكن ماذا لو وقعت مستجدات لم تدخل في الحسابات ، حسنا ليفعل الله ما يشاء ، شعرت بشيء من الراحة فهناك منْ يمكن أن تركن الى أن تحمله سلامتهما

ربت عمر على رأسها وقبلها على جبهتها

لدينا حاجيات يمكن أن نتركها أو نسلمها لموظف الاستقبال-

بالفعل ،لدي اكسسوارات وجاكتين من الجلد كنت قد اشتريتهما من الصناعات - الجلدية في بغداد وهما ثقيلتان.

ربما لدي حاجيات أكثر سأ قوم بتصفيتها ، يجب أن تكون الحقائب خفيفة وقد - نضطر الى الجري لسبب أو آخر فتعيقنا

عاودها ثانية شعورها المقلق ... البحر ...الشرطة .... الاحتجاز في غرف مقززة مع بشر لا تعرفهم محشورون جميعا بعيدا عن عيون الشرطة.

لم تستطع أن تخلد للنوم ....تناولت حبتا برستمول ووقفت ترقب السماء من شباك الغرفة في الطابق الخامس المطل على الشارع الفرعي من استقلال جادة سي في اسطنبول ،هنا حيث هي بعيدة على نحو لم تفكر فيه قبلا ،عن بغداد ،عن امها وعن عملها وعن الناس الذين تعرفهم أو كانت تتعامل معهم، خلى الشارع من زحامه الا من بعض السكارى بعضهم يضحك وهو يكلم نفسة

وآخرون يسيرون مترنحين صامتين وكأنهم يفكرون لماذا شربوا الى حد الثمالة، شعرت بنوبة نعاس فاستلقت الى جانب عمر الذي كان يغط بنوم عميق، هي الان في الطريق الى الحرية ومستقبل جديد ،ألا يتضمن العمل من أجل حياة جديدة تصنعها بيديك نفحة سحرية تبعث العزيمة في مفاصلك لتتحرك بعزيمة أقوى ؟ولكن ما ذا لو وقع المحذور وسقطا بايدي الشرطة اليونانية، واذا رفض بحر إيجة أن يشارك في هروبهما !وتمرد على المهربين وباخرتهم وأخيرا هل يستحق صناعة مستقبل مجهول كل هذه المخاطر ؟

في الثالثة والنصف دق جرس الهاتف يذكرهم بالموعد ،وعند باب الفندق كانت سيارة بيجو سوداء واسعة تنتظرهما ، استقبلهما السائق الذي كان يرتدي زيا رسميا لشركة سياحة بترحيب مبالغ فيه ، كان معهما حقيبة صغيرة للملابس الداخلية فقط ، وقاما بتوزيع الدولارات التي معهما وربط كل منهما ما لديه بحزام على البطن ، أبقيا ثلاث مئة دولارا للطريق،

كانت ا لتدفئة بالسيارة تبعث على النعاس قال السائق بانكليزية بالكاد جمّع كلماتها –إذا توقفنا عند أي حاجز أتركا الحديث لي ، الشرطة لا تتحدث الانكليزية ، عموما انتما سائحان في شهر العسل ذاهبان الى شواطئ إيفانيك.

توقف السائق عند كافتيريا تتخفى وراء مجموعة من أشجار الصنوبر الاحمر، كان رواد الكافتيريا من المسافرين على الطرق الخارجية ورغم إن النهار لم ينتصف بعد فإن معظم الجالسين يتناولون العرق التركي فيما تتصاعد موسيقى يصحبها غناء جبلي لإبراهيم تطلس ،كان الصوت عريضا ينسجم وجو الصالة المنعزل والدافئ ، يستمع الجميع بإصغاء ويهزون رؤوسهم بتوافق منسجم ،

طلب عمر قهوة وبعض الكرواسان المحلات بالشكولاتة ،لم يعرهم أحد اهتماما، بدا الجميع كأنهم يمارسون طقسا ، الموسيقى والخمرة وظلال النعاس تدفع بهم الى الاسترخاء والانكفاء الى دواخلهم

عمر هل يقدمون المخدرات-

قلت لها إنهم منسجمون فقط يحلمون بالشاطئ الرملي والبحر ، لا يواجهون الهروب وبالتالي ليسوا خائفين ،كانت صفية حساسة تجاه ما هو خارج عن المألوف، هذه واحدة من صفات الاشخاص الذي جرت حياتهم على وتيرة واحدة وتعودوا القناعة بها ،ستواجه في اوربا بعض المتاعب ولكني سأقف الى جانبها، لن تشعر بالذنب حينما تغيّر من بعض عاداتها وتصبح أكثر قدرة على اتخاذ القرارات بنفسها ،حين طلبت منها أن تغير قصة شعرها لترفعه فوق أذنيها ،نظرت نحوي باندهاش، كيف لي أن أعرف مثل هذه الأمور عن النساء ، قلت لها ان وجهك مستدير وخّديك مكتنزين ،لم توافق ولكني ضبطتها وهي تقف أمام المرآة وترفع شعرها كاشفة القرطين المتحركين ، لم أشعرها بوجودي وأصبحت مقتنعا انها ستواجه متطلبات حياتها الجديدة بشجاعة.

فجأة توقفت الموسيقى وصمت ابراهيم تطلس ، ساد ترقب مستطلع ثم انفلت صخب شيّع الصمت والهدوء بعنف ، لم يكن يبدو على الزبائن وهم ينصتون ويشربون العرق من كؤوس الخمرة فيها كحليب عكر ،رفع شاب صوته بغناء تركي ، كان صوته يملأ الصالة بنبرة عميقة متناسقة ، صمت الجميع بعدها قام المغني يرقص فاردا ذارعيه مراوحا في حركته بين قدميه فيما انطلق الجميع يصفقون بإيقاع منتظم .

قال السائق –ستبقيان في فندق على الشاطئ مباشرة وفي الثالثة صباحا سيحضر الاخ مراد لنقلكما الى الباخرة

قلت –هل سيكون العدد كبيرا في الباخرة

لا أدري-

ونحن نغادر الصالة لم يلتفت أحد الينا ،كانوا مشغولين بمراقبة الراقص الذي زاد من سرعة دورانه محافظا على رشاقة حركاته وخفتها ،

بدأت غيوم داكنة متقطعة تتجمع كانت تتقدم من خلف الجبال والهضاب التي كانت تلازم الشارع لأكثر من ثلاث ساعات ،كانت الغيوم وكأنها في عجلة من أمرها بعد أن استلمت أمرا بالتحرك ، ونحن ننزل الى مشارف المدينة توقف السائق وهو يلتفت نحوي

أرجو الا ترد او تستفهم ، اترك الحديث لي-

كانت نقطة تفتيش للشرطة ، سيارة شرطة بيضاء تقف في منتصف الشارع وقد تم تشغيل أضويه التحذير الأربعة ،وكان على الجانين ثلاث دراجات بخارية بجانبها شرطة بالملابس الرسمية

انزل السائق زجاج السيارة من الجهات الأربع وتبادل حديثا بالتركية مع السائق ثم طلب أوراق ،تطلع نحوهما متفحصا وقال :مبروك

لم افهم من حديثهما الا ترديد كلمة في أوتيل (فيراهي افلير)،رغم قساوة الطقس فتحت الزجاج قليلا ، كانت ننطلق من البحر ومن المدينة رائحة الصنوبر البري و رطوبه تلطف البردة التي كانت بحماية سلاسل الجبال التي ظلت ورائنا ونحن نتجه بمحاذات ألأرخبيل الى الشرق

قلت للسائق ونحن نأخذ طريقنا داخل (إيفا ليك)-هل سننزل في فندق فيراهي

نعم.....انت دقيق سيدي-

ابتسم وهو يغمز بعينه

بدأ مطر خفيف

قالت صفية –اللهم اجعله خيرا

قال السائق –هذه الليلة سيتعرض بحر أيجة الى عاصفة

بسملت صفية وقالت –فال الله ولا فالك

قال السائق –راديو اسطنبول يحذر الصيادين ويطلب عدم الخروج الى البحر هذه الليلة...سأعوف فور ايصالكم الى الفندق

كان فندقا صغيرا منعزلا تحيط به اشجار الصنوبر والسدر الازرق، يرتفع مدخلة بثلاث درجات من المرمر الرصاصي ويفصله عن الماء شارع فرعي صغير ،حول إيفاليك مجموعة من الخلجان ويقع الفندق على أحد التفرعات ، وهناك أمام الدخل على الماء سلم حجري يمكن استخدامه للنزول الى الزوارق التي تنقل الراغبين بالسياحة عبر الخليج المجاور ...كانت هناك عشرات الزوارق البخارية الصغيرة واليخوت البيضاء تقف مشدودة الى الرصيف الحجري المحكم ،في مثل هذا الجو يحرص السواح على البقاء على الارض يتسكعون في الشوارع المكتظة بمحلات بيع التذكارات السياحية

كانت موسيقى ناعمة تنساب في صالة الاستقبال، قالت صفية انها سيمفونية الربيع ، قلت ،تعرفين اني (غشيم) فيما يتعلق بالموسيقى ،قالت ،هذه من القطع التي أحبها

-هل هي لموزارت ؟--

-لا ،هي للايطالي فيفالدي-

كان موظف الاستقبال شابا حليق الرأس واللحية والشاربين ، ابتسامته المجاملة رسمية ،عيناه زرقاوان بدائرة رصاصية حول البؤبؤ ،لم أر إنسانا له مثل هذه العيون ،كانتا صافيتين ولكن نظراتهما ماكرة

أفرغ معلومات الجوازين في السجل أمامه وأعادهما لي ،

قال-قبل أن تصعدا الى غرفتكما أود أ ن أقوم بواجب الضيافة

طلبت فنجاني قهوة تركية أيدتني صفية بهّز رأ سها ،كنا بحاجة الى قهوة مركزة بعد ساعات في السيارة المكيفة ليس في مدى رؤيتنا غير الجبال

الصخرية والاشجار حتى لتشعر عند اختفاء السيارات المارة إنك منعزل عن العالم

أمام موظف الاستعلامات كراسات دعاية سياحية عن مدينة إيفا ليك، استأذنت الموظف الذي قال- لدينا باللغة العربية أيضا ، في الصيف يزورنا مئات ا لسياح من الخليج العربي

قالت صفية –لن تجد الفرصة لتتجول ، أنا أشعر بتعب وأود أن أنام لم يتبق شيء يومين أو ثلاثة ونكون في أوربا-

الفصل الثامن

لم تتوقف صفية عن التطلع الى البحر ،كان الشاطئ الرملي يمتد عرضا حوالي خمسين مترا ثم يبدأ البحر تلامس موجاته حافات الشاطئ ناقعة الرمل بالماء المالح ،المسافة الثانية من التقاء الماء بالرمل تمتد أيضا خمسين مترا تقريبا تبدو بلون أخضر ,الى الامام يأخذ لون الماء زرقة تتكثف كلما ابتعدت بنظرك

لم أشاهد البحر قبلا ...إنه مخيف فعلا-

هذا لأن اليوم غائم ومعتم ، البحر مصدر الحياة للبشرية-

تأوهت وكأنها تشعر بالذنب لأنها ستسافر في البحر، تحمل بين جوانحها أملا بالغد وا لحرية ،وترحل بعيدا عن عالمها يدفعها فضول الى خوض التجربة حتى النهاية

استلقت على السرير فيما بدأ المطر غزيرا يتساقط حبات كبيرة ، حتى إنه يضرب الشباك العريض للغرفة بصوت مسموع يستثير القلق من شيء غامض قد يقع بأية لحظة، أغمضت عينيها بحركة احتجاجية ، وقالت-سأنام ، تصبح على خير.

كان البحر الذي استثاره المطر والذي كان في البداية مغيضا ولكن مترقبا ليعلن إحتجاجه ،الموجات المترددة في الوصول الى الشاطئ تتسم الان بالعنف وتلطم الحاجز الصخري بعناد متكرر فيندفع الرذاذ الى باب الفندق ،والشارع الإسفلتي الضيق الذي يمتد أمام الفندق ويلف حتى استدارة الأرخبيل تحول الى مسرب للمياه المتساقطة من السماء أو المندفعة من البحر، السماء التي كانت ترد على البحر أضحت سقفا محكم الاغلاق مظلما ، يترسخ انطباع أكيد إننا في شتاء ليس عراقيا بالمرة ، نحن نرى الجانب الاخر من (الرحيل) الجانب الأكثر إثارة وخطرا، هل ستصمد الباخرة التي ستقلّنا فجرا أمام عنف الطبيعة المفاجئ؟.

الحرية التي ننشدها على مسافة ثلاث ساعات في بحر ايجة ،كم هي قريبة وكم هي بعيدة ، شيئا من الندم بدأ يتحرك في صدري ولكني عملت أن لا أدعه يتملكني فقد أصبح التراجع مستحيلا ، ثم أين نتوجه ؟ ربما لو كنا نملك الكثير من

المال لأمكننا أن نستقر في الاردن أو في سوريا أو حتى في بلدان الخليج العربي ، لقد استقبلوا اصحاب الملايين ليساهموا في تنشيط اقتصادهم ، نحن نبحث عن عمل فهل نجده في تلك البلدان ، في أوربا يعيدون تأهيلنا وقد يتم تعادل شهاداتنا ونواصل الدراسة ، العودة الى بغداد مستحيلة بعد القطيعة مع عبد الغفور عبد القهار ، ربما سيكون أكثر سطوة وبالتالي لن نجد مكانا آمنا في العراق كله.

غفوت وأنا على الكرسي، كانت أحلامي خليطا ملتبسا من أحداث بدت متداخلة رغم إنها من اوقات متباينة وفي مناسبات مختلفة ، شعرت إن رأسي يصبح أثقل وإن خدرا يوخز فخذي الأيمن، من بعيد كنت اسمع صفية تناديني ثم صحوت وهي تهز كتفي لتوقظني

-ستتعب من نومك على هذا النحو-

-لقد تعبت فعلا، كم الساعة الان -

استدارت لتتطلع في الساعة الملقاة على كوميدونو سرير النوم

الثانية وعشر دقائق-

-امامنا خمسون دقيقة ....لنلقي النظرة الاخيرة على حاجياتنا والمبالغ-

حين نشرت صفية المتبقي من الملابس وسترتي نجاة في حالة التعرض لمشاكل في البحر ، طلبت منها أن تتخلص من الملابس الإضافية عد ا بلوزتين من الصوف وسترتي النجاة

كانت صفية مرتبكة تتحرك بشيء من العصبية وتحاول جاهدة أن تتجنب الحديث فقد كانت تخشى من أن يفضحها صوتها المرتجف فيكشف خوفها ،

حاولت أن اطمئنها –سيكون عبورنا الى اليونان تجربة جديدة

نظرت بشك فيما جال في عينيها تساؤل لم تفصح عنه، أقدر ما تمر، به فعند ظهور مخاوف غامضة بسبب المجازفة الخطرة التي تبدو في أفق المواجهة التي

نتعرض لها ، تلتبس المشاعر ، وقد فاقم من هذه المشاعر حالة الجو الغاضب والذي كأنه يوجه تحذيرا لنا ،فجأة انكشف لي على الجانب الآخر من ذهني ما يمكنني أن أتعرض له لو إنا بقينا في بغداد ،حينها سأتحول من إنسان بمشاعر سوية الى آخر تابع عليه أن ينفذ أوامر سيّدة ...الى كلب حماية يختطف اللقمة من آخر ليقدمها لسيده ،لقد شاهد صاحب قضية استيلاء عبد الغفور على البستان على دجلة التي أضطر لتركها بناء على أمر عبد الغفور ، كان الرجل يبكي بحرقة فاجعة فهي كل ما يملك ، لم تكن بستانا للنزهة ، كانت الارض التي يطعم منها عائلته وكانت تأويه أيضا ، هو الان بلا مصدر رزق وبلا مأوى, وهو كيف سيواجه العالم إذا دفع للمساهمة في عشرات القضايا المماثلة ، هل يستطيع أن يحيا بكل ذاك الحمل من الذنوب ،أن يحيا إنسانا ،على الضفة الأخرى من بحر إيجة يمكن أن يظل انسانا ،

قال- علينا أن نؤمن إنا نواجه قدرنا وقد عزمنا ، وإذا عزمتم فتوكلوا

تطلعت صفية الى البحر وهي تزيح الستائر ، كان صوت ارتطام الموج بالحاجز الصخري قد خف وتوقف عن دفع الماء الى الشارع الأسفلتي ،بدا الفجر مشوشا وهو يتمدد على سطح البحر العكر والمتموج ،

قالت –تعلمت السباحة وانا صغيرة ، كان أبي يصحبني الى المسبح في النادي الاولمبي ، وفي الجامعة كنت أذهب مع بعض الطالبات الى مسبح فندق بابل،وأنت؟

انتبه عمر الى إنهما مازالا يجهلان الكثير عن بعضهما البعض ،كان يعبر دجلة ذهابا وايابا ويفاخر (بنفس واحد)

سنرى ....ولكن ليس في بحر ايجة ....ربما في مسبح في هولندا-

.لقد وضعت سترتي النجاة في الحقيبة وأفضل أن نرتدي (بلوزات الصوف)-

حين رن جرس الهاتف كانا في طريقيهما الى الصالة

مطر خفيف في الخارج ، كان عند باب الفندق باص صغير يتسع لثمانية عشر راكبا ،السائق الذي كان يرتدي معطفا واق من المطر ويضع على رأسه قلنسوة من الصوف حد العينين وتترك شاربيه الأشيبين يتمددان على زاويتي فمه ،كانت عيناه متكاسلتين وكأنه يعلن عن قرفه من المهمة التي يقوم بها ، فهما نصف مغمضتين ويتجمع فيهما بقايا دموع مسحها حديثا ،كان قد ترك الباب مفتوحا ولم يستقبلهما ، أشار عليهما بالصعود .

في الباص كان ثلاثة اشخاص ،اثنان من الافارقة وشاب نحيل الجسد كان يرتجف مقرورا فقد كان يرتدي سترة صيفية واسعة عليه وبنطالا من الجينز ،

استقرا الى جانب الشاب الذي كان ينظر نحوهما بمودة ،أما الافريقيان فقد بدا أنهما منطويان على نفسيهما

همست صفية بإذن عمر –الشاب الى جانبك يعاني من البرد ،لديّ بلوفر صوف أعتقد إنه ملائم له

فتح عمر الحقيبة وأخرج البلوفر

رفض الشاب قبوله ولكن عمر اقنعه ،وحين لبسه تحت الجاكيت الواسع شعر بالدفء فاعتدل في جلسته

شكرا-

استغربا فقد نطقها بعربية سليمة

هل انت عربي؟-

-لا من افغانستان-

وأين تعلمت اللغة العربية ؟ -

شعر عمر إنه دونما تفكير يعود الى طبيعته المحققة ، عشر سنوات في المحاكم لابد أن تترك آثارها التي تظهر فجأة ودون أن يقصدها

تطلعت اليه صفية بفضول فيما كان الافريقيان يتطلعان عبر الزجاج الى البحر العكر بسبب الضباب والريح الخفيفة

كنت ادرس الهندسة في العراق ومن زملائي تعلمت اللغة-

كان السائق قد توجه خارج المدينة باتجاه الشمال فقد كانت المنازل تتناقص حتى اختفت على الجانب الاخر من الشارع الممتد مع البحر ،لم يكن هناك غير مزارع وبساتين مسيجة وأحيانا يسمع نباح كلاب تتشاجر طلبا للدفء، توقف عند منعطف الى اليمين قليلا حيث صعد خمس رجال وامرأة بيدها طفل في السادسة وعلى صدرها طفل نائم لم يتبينا عمره، كانت المرأة متعبة تجر طفلها بآلية ،

ولماذا أنت مهاجر ؟-

قصة طويلة ولكن باختصار حصلت على منحة عن طريق باكستان للدراسة - في جامعة بغداد، كان الاستقبال مدهشا ،حصلت على سكن و مساعدة مالية شهرية، في العام الماضي كنت في كافتيريا السكن الطلابي وكان هناك نقاش حول الحتمية التاريخية ، كان الطلبة وهم بالمناسبة يدرسون تخصصات مختلفة، يناقشون نظرية فوكي ياما حول نهاية التاريخ ،المجال لا يسمح بالتفصيل ،عرضت الخلاف بين فوكوياما واليسار الجديد واستعنت بنظرية سمير أمين الماركسي المصري حول الحتمية التاريخية ، في اليوم التالي وبعد انتهاء الدروس تم استدعائي لمقر لمنظمة الطلابية في كلية الهندسة ،جرى انذاري والامتناع عن الاستشهاد بالماركسية وباي من رموزها ، بعد أسبوع جرى استدعائي لإحدى الدوائر الامنية ،وهذه وحدها قصة ،

توقف السائق في منطقة منعزلة مكتظة بأشجار الحمضيات عند رصيف من حاجز صخري ربطت فيه بالحبال ناقلة مما يستعمل في الانهار الكبيرة لنقل البضائع ، كنت قد رأيت مثلها في البصرة ، قال زميلي ،هذه(الدوب) تحمل البضائع الى الباخرة الراسية بعرض البحر بسبب عدم ملائمة الغاطس في النهر،

فكرت ا نهم سينقلوننا بهذه الناقلة الى الباخرة ،قال رومال ، بالمناسبة هو اسم الشاب الافغاني

-هذه الناقلة ثانية-

ونحن نقف طابورا أمام العارضة الخشبية للعبور الى الناقلة التصقت صفية بي يشدها خوف ، فهنا بدأت الرحلة بجانبها الاكثر غموضا وصعوبة ،نحن أمام تحد مرعب ،قال رومال

عمي هذه العبارة المتداعية هي التي سنعبر بها بحر ايجة-

تقدم بحار اسمر البشرة يرتدي (بلوزة) سوداء بنصف كم يسمح لعضلات زنديه المنتفخة بالاستعراض الحر ، ثبت بقدمه العارضة ، كان يضع في قدمية حذاء عسكريا أحمر اللون بشريط يثبتهما ،لم يبتسم فقد تعود على مواجهة مجموعات متعددة من الهاربين من جحيم أوطانهم الى أوطان ترف في أحلامهم رايات للحرية والامان والمستقبل

حين نزلنا الى الناقلة التي لم تكن أكثر من حوض معدني مستطيل ،ربما عشرون مترا في حين لم يزد عرضها عن أربعة أمتار وهي دونما سقف ، على امتداد الجانبين كنت (مصطبة) من الخشب مثبتة بمساند حديدية صدأة ،في الوسط تم تركيب غرفة للقيادة ومحرك يعمل بالديزل كان صوته يصم الاذان ،جلسنا تحت الغرفة ،قال رومان هنا أفضل فقد تمطر السماء ، سقف الغرفة سيحمينا.

بدت صفية مرعوبة وهي تجول بنظرها في وجوه الهاربين، سحنات غريبة، في العيون قلق وترقب وخوف ،وعلى وجوه البعض أثار سوء التغذية فهي ممتقعة يغرس فيها الخوف من المجهول امتقاعا وعلامات تتراوح بين الغضون المبكرة على الجباه أو الخطوط الممتدة أسفل الفم ،كانت ملابس الافارقة كأنها فارقت حاويات القمامة أمس فهي لا تلائم الأجساد التي تضمها والكثير منها يعاني من كثرة التمزق ، ولكن الذي ضايق صفية هو الرائحة المقززة المنبعثة منها والتي جعلتها رطوبة الهواء الثقيلة أشد وطأة .

كانا بهيأتهما المترفعة والأنيقة يبدوان وسط هذا الحشد طيران من كوكب آخر حطّا خطأ في الناقلة، تقدمت المرأة وطفليها ،قالت بانكليزية ركيكة

هل تسمحان أجلس قربكما ؟–

افسح لها عمر قليلا وطلب من رومان ان يبتعد ،جلست المرأة ،قال الطفل أريد أن أنام ، قالها بالعربية ،مدت صفية رأسها

أنت عربية-

نعم ..وأنتما ؟-

نحن عراقيان-

تنهدت المرأة وقالت –حمدا للرب

تابعت –يمكن أن اتحدث معكما على الأقل

لم يدفعهما الفضول التعرف على المرأة التي انفرجت أساريرها قليلا و بدت أكثر ارتياحا وهي تلاطف ابنها الكبير وهو يقرفص جسده مسندا رأسه الى فخذها

رفع العامل المفتول العضلات الحبال التي كانت تشد الناقلة الى الرصيف ثم سحب العارضة الخشبية

سنتحرك-

قالها بالانكليزية ،وهو يقف على السلم المفضي الى حجرة القيادة ، في الحجرة كان هناك شخصان قال رومال ،القصير بالكاسكيت الأبيض هو الكابتن (سكير) يوناني يعمل مع الأتراك أما الثاني فهو تركي يساعده ،كانت الأرضية الخشبية للناقلة ملطخة ببقع الزيت والذي لم يجري تنظيفه بعناية لذا كانت رائحته تزيد من ضغطها على المهاجرين

قالت صفيه بصوت يحمل نبرة خوف عميقة-ماذا سيحصل ؟

للمرة الأولى أشعر أني لا أعرف وليس لدي حتى جوابا مواربا لأطمنها، ضغطت على يدها

قالت المرأة –الرب وحده يعرف

كان الجواب أكثر إثارة للخوف والحيرة لدى صفية ،فحين لا نعرف ما نريد أو ماذا سيحصل في أوقات الشدة يعني ببساطة إننا يائسون

الطفل النائم كان يحلم ،والناقلة بدأت بالتحرك والبحر لم يكن راضيا عما يجري فقد بدأ زمجرة مكتومة فيما أحكمت غيوم منخفضة غلق صفحة السماء وغدا الفجر كئيبا مقبضا

قالت صفية –أشتهي شايا ساخنا

ثانية شعرت بالعجز لتعذر الحصول على الشاي ، بدأ المطر ليزيد من تشوش المنظر وصعوبة الرؤية ، بدأ الرعب يطبع ملامحه على الوجوه بعد أن أخذ ماء البحر يرشق المهاجرين بدفقات من موجات تتقدم من الجانب اليوناني

قال رومال –تصور حتى أنهم لم يزودونا بسترة النجاة تحوطا لما قد يحصل ؟

انتبهت صفية ، أخرجت سترتي النجاة ،

قال رومال –أنتما محظوظان

رددت صفية بصوت هامس –قل اعوذ برب الناس

قال رومال –هل تجيدان السباحة

قالت صفية –كلانا

... قالت المرأة-ماذا

كانت فزعة

تابعت –هل سنضطر الى السباحة؟ ،ايها المسيح المخلص ارحمنا

كان الجميع صامتين يتطلعون بهلع الى البحر يعصرهم قلق سد منافذ التفكير، وعلى اية حال بماذا سيفكرون، ففي مثل هذه اللحظات ينغلق الذهن بانتظار ما سيقع ,

بدا كل ما حولنا وكأنه يتحضر لولادة جديدة ، لعالم جديد كنا نتهيأ لندخله مجموعة غير متجانسة ربما تمثل عينة عشوائية لهذا العالم

بدأت رشقات الماء تشتد واصبح من المتعذر الرؤية الى اكثر من بضعة أمتار سيما وقد تحول المطر الى ستارة مشوشة بسبب استمراريته وتلاحقه ، التصقت صفية بي تبتغي الحماية أو على الاقل تطمينها إن الأمور بنهاياتها والتي ستكون كما تشتهي ،

كان الطفل يبكي –ماما انا جائع

لحظت انها لا تملك ما يشغل الطفل أو يسد جوعه ،كانت صفية قد دست كيسا به تفاحة وبعض قطع البسكويت ،أخرجتها على عجل خوفا من رشقة موجة مشاكسة ،مد الطفل يده ولكن الام نهرته ،لم التفت لها وأعطيت الطفل الكيس الذي تناوله بلهفة فرحة،

قال مورال –افكر بمسألة سخيفة في مثل هذا الوقت

لم أرد عليه واكتفيت بالتطلع نحوه

قطعا لم يفكر أحد بما فيهم أنا كمحام ، بأن يوثق الاتفاق مع المهربين من باب - معرفة حدود مسؤوليتهم فيما يقدمونه من خدمات ،

ابتسم بمرارة

أنا أيضا لم أفعلها ولا أعتقد أنها طلب موضوعي رغم أني عميل سابق لهم ، - نحن نتعامل مع أشباح ما إن تلتمع نقطة ضوء بالأفق حتى يختفون وكأنك كنت في حلم ليلة صيف كما يقول شكسبير.

هدير الموج المتعالي وصوت الرعد الذي ما ينفك يدوّي في السماء المتجهمة جعل من الصوت المنبجس من أيجة وكأنه من مكملات المشهد ،انعطفت الناقلة الى اليسار بحدة دفعت بالماء الى أرضيتها لتغرق اقدام المهاجرين بموجة برد حادة ،مع تكرار الصوت.

قال مورال

البحرية اليونانية ، والان نحن بين يدي الله-

اندفعت الناقلة بسرعة تشق البحر والظلام والمطر ربما الى ما تبقى من

الارخبيل التركي

قال مورال -يعمد الكابتن الى الهرب لأنه يوناني ويخشى الوقوع بيد سلطات بلده لأن العقوبة ستكون قاسية

كنا نحس بالريح الباردة تضرب وجوهنا فيما يصفعنا المطر بقوة ،وكانت الناقلة ترتفع وكأنها تطير في الهواء ثم تهبط بسرعة تجعل قلوبنا تخفق بعنف،

صفية المرعوبة كانت تشدني اليها وهي تدفن رأسها في صدري، قلت لها

-افتحي ذهنك وانتبهي لما أقوله ،إذا وقع المقدر وتحطمت الناقلة إحرصي على - أن تكوني قربي قدر الإمكان النقطة الثانية الأهم أن يفقدك الخوف أو الرعب تمالكك نفسك ، أنت ترتدين سترة نجاة يمكن أن تنقذك وعدم السيطرة سيفقدك التوازن وتسقطين الى قرارة البحر ،النقطة الاخيرة أن تتهيأي لأخذ أكبر كمية من الهواء عند قدوم الموجة وفور عبورها ارتفعي لأعلى

بدا قارب الشرطة البحرية كتلة غامضة الملامح في مشهد انخفاض الرؤية ولكنه اشعل ثلاثة مصابيح إضاءة كبيرة وكرر النداء باليونانية ثم أعاده بالانكليزية ،كان يدعو قائد الناقلة الى التوقف للقيام بتفتيشها , ولكن كابتن الناقلة اندفع بأقصى ما يسمح به المحرك

قال مورال-يحاول الهروب الى المياه الاقليمية التركية لأنه يعلم إن الزورق اليوناني لن يلاحقه

كان المهاجرون الذين وقفوا وسط الناقلة يندفعون يمينا أو شمالا بحسب مناورة الكابتن وسير الناقلة

فجأة سمعنا صوت ارتطام انكشف على أثره السطح الذي كنا نتدارى به ورأيت الغرفة فوقه تطير كأنها لعبة أطفال لتسقط على مقدمة سن صخري يمتد في جزيرة صغيرة

انفتحت الناقلة لتسمح بالماء يتفق الى قعرها ويطفوا الجميع أمسكت بصفية بقوة وأنا أصرخ في أذنها أن تسبح ،كانت تستجيب بألية فيما تصطك اسنانها وهي ترتجف

تقدم الزورق اليوناني وأنزل زورقين مطاطيين على كل منهما اثنان من رجال الشرطة البحرية بملابس الغوص وبدأوا بإنقاذ المهاجرين وصوت صراخ محموم وحركات هستيرية للأفارقة على وجه الخصوص ،رأيت مورال يسبح متخلصا من حذائه الثقيل ثم يتشبث بنتوءات الصخرة ، المرأة لم تكن تحمل طفلها الرضيع وهي تصعد الى الزورق اليوناني ، كانت تصرخ بعنف وتلطم خديها بجنون ...سأتحمل ذنبك يا مارسيل كانت ترددها بصوت مفجوع والشرطة البحرية تساعدها على الصعود .

الفصل التاسع

صباح يوم 25-04 -1995 نحن في قبضة حرس الحدود اليوناني ، لا أدري ما أسمي هذا الاحتجاز القسري لأني لا أعرف نوايا السلطات في مدينة (ميتي ليني) الصغيرة الواقعة على البحر مباشرة ، حين دخولنا المدينة كانت المحلات مغلقة والشوارع خالية من المارة ، بعض الصيادين كانوا عائدين مع الصباح الثائر ببحره وسمائه ،قالت صفية ،ماذا سيكون مصيرنا ؟ شرح لنا (مورال) اجراءات التحقيق والأسئلة المتوقعة وكان بادي السرور وهو يشرح تفاصيلها ،كان يؤكد إنه صاحب تجربة ، وفي كل مرة يتم الإمساك به في مدن الساحل اليوناني على بحر إيجة يعطيهم اسما مغايرا وحكاية يقوم باختلاقها. .

كانت الغرفة التي حشرنا بها دافئة والى الجدران كراس من البلاستك بيضاء وعليها مقاعد خفيفة من القماش ،المرأة تمسك بطفلها الذي بدى مرعوبا وهو يقضم قطعة خبز طرية قدمها له الشرطي الذي جاء يسجل اسمائنا ،لقد فقدنا ثلاثة من الافارقة ،وطفل المرأة وتعرض بعض المهاجرين إلى إصابات متنوعة وقد تم عزلهم عن المجموعة في غرفة خاصة للعلاج الطبي

قال مورال –استاذ لدي مخطط كامل للهرب

ابتسمت وأنا أداعبه- مخطط مكرر ثلاث مرات

بدا جادا وهو يقترب مني – الغرفة مراقبة بالكاميرات وهم يسجلون الحديث ولديهم مترجمون ،ما اقوله لمصحتنا

- مصلحتنا

نعم أنت والمدام وأنا-

ولماذا شملتنا بمخططك وأنت الذي سينفذه ؟-

مشكلتي إني لا أملك المال اللازم لدفعه لدوريات حرس الحدود-

بهذه البساطة-

نعم وسأقوم بتجربة عملية أمامك ، اعطني عشرة دولارات-

حاولت أن أجاريه ، سلمته ورقة فئة عشرة دولارات

تقدم الى الحارس على باب الغرفة ، لحظت إنه كان واثقا ويتصرف بعفوية تمنع أية شكوك

وشوش الحارس وسلمه الورقة ،غادر الحارس باب الغرفة بعد أن تأكد من إغلاقه ، مرت بضع دقائق ليعود ،استقبله مورال عند الباب فسلمه الحارس علبة سكاير محلية

ولكني لا أدخن-

-ليس مهما ،هذه العلبة بخمسة دولارات،واضح-

واضح-

معنى هذا إنه يمكن أن تحصل على ما تريد بالثمن اللازم-

لكن الامر مختلف مع مخالف للقانون وهارب وقد يتعرض الشرطي الى - مسؤولية جنائية

في كل مرة يتم اعتقالي ، في المدينة أو في محطة القطار أوعند مرسى - الزوارق كان السؤال الازلي هل معك نقود، يبدو السؤال عاديا وربما جزء من التحقيق ، لكنه في الحقيقة يعني كم ستدفع لنا ، من كان معي ولديه نقود تم السماح له بركوب القطار الى أوربا بعد إن اختلوا به لدقائق للاتفاق على الثمن.

ناقشت الموضوع مع صفية واتفقنا على المغامرة ، ففي اسوء الحالات لن تنجح المحاولة ، فهنا لن يتغير شيئا

عالم جديد نتعرف عليه وكنا نتجنب الوقوع في حالة الإحباط أو الاستسلام للخوف لأن كليهما يشلان التفكير وفرصة وجود مورال مصادفة غريبة ولابد من

استثمارها ليكون لنا مبرر إذا ما أعادونا الى تركيا ، في المساء بدأ التحقيق مع المجموعة ،في التاسعة ليلا كنت أنا اولا وبعدي صفية ،كانت هذه ايضا فرصة مناسبة لأقف على الاسئلة ولتكون اجوبتنا متطابقة ،حين خرجت تأكدت من إن مورال يملك الخبرة الكافية فقد عرض لي كل ما يمكن ان يوجه لي من أسئلة كما انه نصحني ان لا أسهب وأن أكون مراوغا في إجاباتي ، قلت له لا توصي محاميا

خرجت صفية تقطر عرقا وتحاول أن تتماسك

قالت- كل شيء كان عاديا ولكن الضابط بدأ يغازلني فنهرته واصبحت أكثر رسمية وجادة في إجاباتي ،شعرت بشيء من ابتذال الموقف ،

قال مورال –هل قررتما

نعم-

حسنا -

ذهب الى الحارس الذي كان يكلمه بصوت خفيض ثم طلب منه أن يتبعه

مئة دولار لكل شخص يعني ثلاثة مئة دولار وسيؤمن وصولنا الى مرسى - العبارة التي ستنقلنا الى أثينا لقاء خمسين دولارا

ثم-

نأخذ العبارة الى أثينا ومن هناك الى البلد الذي ترغبان فيه بشرط أن يكون من - دول الاتحاد الاوربي

بالقطار-

بالطائرة ، الذهاب بالقطار فيه مخاطر لأنه يعبر دولا تقوم شرطة الحدود فيها - بتدقيق الجوازات

ولكن كيف يمكن قطع تذاكر بدون جوازات-

هنا نحتاج الى مبلغ إضافي -

كان المبلغ الاجمالي يتجاوز الالفين وخمس مئة دولارا لثلاثتنا ،وهذا يعني إن كل ما دفعناه الى المهرب التركي قد ضاع هباء

في الساعة العاشرة و النصف ليلا كنا في سيارة الشرطي ، قال بأنا يجب أن نصل مرسى العبارات قبل الحادية عشرة حيث آخر عبارة تغادر الى أثينا، وهو على صلة بالحرس،

غمز لمورال الذي قال ، بضعة دولارات ،

لا شك كنا خائفين ولكن مورال كان يتحدث بثقة وبشيء من النزق وكنت أترقب طارئا كل لحظة ، وحين قطعنا التذاكر وصعدنا الى سطح العبارة شعرت إني أستعيد الأمل وبدأت شعر بالاسترخاء بحيث غفوت بعد دقائق وأنا استمع الى صوت المحرك برتم ثابت ،كنت أضع رأسي على كتف صفية، ويبدو إني بدأت شخيرا حادا فقد أيقظتني وهي تهزني بلطف ،كان طفل في الثامنة يتطلع نحوي مندهشا ، تذكرت يوم كنت في بيت أختي وبعد جلسة سمر صاخبة نمت في الصالة ،استيقظت على صراخ الطفل ينادي أمه -ماما خالو انقلب أسدا !!!

ابتسمت بوجه الطفل الذي احتمى بأمه

قال مورال إن علي أن أحلق ذقني وإن تضع صفية بعض المكياج والعطر ومن المهم عدم اعطاء الانطباع بأنا متعبون أو في حالة من القلق ، لأن هذا سيخلق انطباعا بأنا لسنا سواحا وانما (هاربون) ، كانت ملاحظة مورال دقيقة وبالفعل كان من على العبارة مجموعات من السواح صعدوا الى العبارة من الجزر التي توقفت عندها في مسيرتها الى أثينا ، كانت حالة الطقس متقلبة على نحو لم نعرفه قبلا ،من الصحو الجزئي الى الغيوم المنخفضة التي تعبر السماء مسرعة الى تركيا ولكن بعضها يصر أن يتخفف من حمولته فيضرب البحر والعبارة برشقات ضاجة بعنفها ، كانت الأضوية التي تنير الجزر تضفي شيئا من السحر على جمالية المنظر ، قالت صفية

رغم المعاناة والخوف الا اني أعترف بانشدادي الى هذه المناظر الساحرة-

كان بعض الركاب يغادرون العبارة في توقفها عند بعض الجزر فيما يصعد آخرون

قالت صفية-كأني في حلم ... الفجر بدأ ينير البحر والسواحل تتحرك على رصيفها البحري أشباح تتحرك لتنظيف المكان ،في مثل هذه الساعة أكون في فراشي في بغداد وأنت تتصارع مع شخيرك ...ليس حلما ما أراه

وضعت رأسها على صدري – هل سنصل أخيرا

نعم ...فقط تمتعي الان-

قال مورال –سنصل أثينا الساعة العاشرة صباحا ....في أثينا الجو اليوم غائم ولكنه غير ماطر ...كما قلت علينا أن لا نفترق في زحمة الميناء فالعديد من العبارات تصل أو تغادر ولهذا السبب يكون الرصيف مزدحما

قالت صفية-معنى هذا ان رحلتنا احد عشر ساعة ...لقد بدأت أستعيد قوتي رغم إني ما زلت خائفة

طبيعي أن تخافي ..نحن في بلد غريب وكل شيء ممكن الحصول ،ولكن - الغريب انك متاسكة الى الحد الذي تشعرين فيه بالنشاط بعد كل هذا الجهد ، علامة مشجعة !

قرصت أنفها بلطف ،كان محمرا بسبب البرد، ابتسمت فيما أشاح مورال بوجهه يتطلع الى زبد البحر الذي يخلفه محرك العبارة.

قال مورال –عادة لا تكون أثينا شديدة البرودة ولكن يبدو ان هذه السنة استثنائية

قلت –ما معلوماتك ؟ نحن في الداخل قد نشعر بذلك

قالت صفية –حينما ذهبت الى المرافق كان السلم مفتوحا و شعرت بالريح تجمد انفي وأصابع يدي

قال مورال -درجة الحرارة الان 7مؤي وتنخفض ليلا الى الصفر

ارتجفت صفية وهي تطلق تنهيدة ضجرة ، كانت تتجنب البرد وفي اوقات انخفاض درجات الحرارة في بغداد كانت تلبس (بلوز) صوفي ثقيل وتصر على ارتداء معطف جلدي فوق الجاكيت فتبدو أكبر من حجمها

بدت السحب الكثيفة تندفع ورائنا وشمس كسلى ترسل اشعة مسترخية تغمر ميناء(بيرايوس) فيما مئات الاشخاص المغادرين والقادمين يملؤن الممرات الضيقة ،عبرنا بهوا كبيرا اولا ثم توجهنا الى ممر الخروج الرئيس، كان افراد الشرطة يكتفون بالتطلع الى العابرين ويدققون بنظرهم في الحقائب التي يحملها المغادرون على وجه الخصوص ،بعضهم كان يبتسم مجاملا ، كان مورال قد شدد على أن لا نتكلم باللغة العربية وإن نحاول أن نبدو سعداء برحلتنا وإذا كنا نتذكر بعض النكات التي تدعو للابتسام على الاقل ، فلنتبادلها، لأن هذا يبعد عنا الشك

فلت لمورال - لو كنت معنا في بغداد لوظفتك في مكتب المحاماة

قال – بعد ان نحصل على الجنسية ، يمكن أن نفكر بالموضوع فالهندسة لم تعد تأتي بالكثير ،

قلت صفية – أنتما متفائلان

محطة الباصات في الميناء مخصصة لنقل القادمين بالعبارات على وجه الخصوص لنقلهم الى المحطة الرئيسة للمترو ،شعرت انا نتصرف كمحترفين يقدمون مشهدا متسلسلا على التلفزيون بسبب تعاقب الاحداث على نحو مدروس ودقيق-أين سنذهب ؟

سألت مورال الذي أجابني وهو يتوقف فقد كان يتقدمني ببضع خطوات

الى الحي القديم ، أعرف امرأة تؤجر غرفا مفروشة رخيصة وهي أقرب الى - أن تكون أمية ، سنقدم لها جوازات السفر لتطمئن الى إننا مسافرون شرعيون، اربعة أو خمسة أيام لتدبير تذاكر السفر الى هولندا وضمان الصعود الى الطائرة ثم-

ثم نتحدث بالتفصيل عن خطط المستقبل بعد أن نكون قد اجتزنا المراحل - الخطرة والمتبقي هو المراحل المرنة التي تحتاج الى مرافعة قانونية وستكون حضرتك المسؤول عن ذلك ولكن بنصائحي ولا أقول بتوجيهاتي

لم اشعر انه يسخر ولكن يحاول أن يكون خفيف الظل

قالت صفية ونحن في الباص الذي تحرك بعد إن أمتلأ بالركاب –شيء يمكن ان يكون رواية مثيرة،

كان الركاب خليطا يتحدثون لغات متباينة ،ولكن سكان الجزر القادمين الى أثينا وهم يحلمون ببيع منتجات من الدانتيل المشغول، شراشف متنوعة وبعض سلال الخيزران ، كانوا الأكثر ثرثرة فهم يتحدثون بصوت عال يتقاطع في فضاء الباص وهو يعبر بكل الاتجاهات،

كانت تجلس الى الشباك فتاة في العشرين من عمرها كما يبدو من ملامحها المتفتحة ،رفعت القلنسوة السوداء عن رأسها فانسدل شعرها الاحمر، لم تهتم بتسويته وانما وضعت القلنسوة بسلة صغيرة كانت في حضنها ،توقف الباص فجأة فاندفعت السلة لتصطدم بالكرسي أمامها ثم لتقفز الى الممر و تتبعثر كمية من البيض على ارضية الباص وتشكل بقعة لزجة رجراجة مختلطة بلونيها الأبيض والأصفر ، صرخت الفتاة بفزع ثم اندفعت بنوبة بكاء هستري، قام مورال كعادته المحكوم بفضوله للمعرفة بمحاولة لفهم (الحالة) كما قال ، بعد لحظات كان يشرح لي ، الفتاة من جزيرة ليسيبوس ،لديها قبول في جامعة أثينا لتدرس الفيزياء، البيض لتبيعه في الساحة الشعبية في سوق فرفاكي ،شعرت بتعاطف مع الفتاة ،

قلت لمورال-لماذا لا تقترح جمع تبرعات من ركاب الباص

فكرة-

وقف في منتصف الباص ورفع صوته باللغة الانكليزي داعيا التبرع للفتاة مستعينا بحركات تمثيلية ، ضج الباص بالضحك ، وضعت ثلاث دولارات في قلنسوة الفتاة التي استخدمها مورال لجمع التبرعات ،وضعت صفية دولاران، كان المجموع 25 جولارا و32 دراخما ، بدت الفتاة محرجة وترددت في أخذ المبلغ . ،وضعت القلنسوة على رأسها ومسحت دموع كانت تنساب على خديه المكتنزين

. صفق بعض الركاب لمبادرة مورال الذي بدا سعيدا

شعرت إن صفية بأفضل حالاتها منذ أخذنا الناقلة من ايفاليك، كانت تقاطيعها مسترخية وهي تتطلع عبر شباك الى واجهات المحلات التي بدأت تفتح أبوابها كاشفة عن معروضات متنوعة من الملابس النسائية ،عند اشارة التوقف كان محلا صغيرا يعرض ملابس داخلية نسائية ، ابتسمت صفية وهي تقول

لقد بدأنا فعلا في أوربا ، في اسطنبول لم أشاهد مثل هذا العرض-

قلت – وفي بغداد ؟

قالت قطعا لا ، في شارع النهر يعرضونها داخل المحل وليس على الواجهة

الفصل العاشر

قال مورال ونحن نتوجه الى محطة المترو – سنتناول بعض الطعام ، أشعر أني جائع

قالت صفية-هل تصدق ان ما قلته نبهني الى أني أيضا جائعة

كانت كافتيريا صغيرة و أنيقة بمقاعدها الخشبية اللامعة ،ورائحة القهوة تملأ فضاء المكان ،لم يكن في الداخل غير نادلة شقراء تشد شعرها الى الخلف وتطوف على وجهها ابتسامة رقيقة وهي ترحب بنا ،قالت إن بإمكاننا الجلوس حيث نشاء ، اختارت صفية الطاولة عند الشباك الذي يكشف الساحة المجاورة للمحطة وعشرات المارة ، كانت الشمس قد تخلصت من كسلها لذا فهي تغمر أثينا بضوء يتماهى مع الشوارع التي ما تزال مبللة فيما يسير المارة بتؤدة وهم يستطلعون واجهات المحال ،كان الافطار شهيا ولذيذا شربنا اكواب القهوة بانتشاء.

قلت لمورال –هل يمكن تبديل مئة دولار بالدراخما لندفع ثمن الطعام

قال- الصراف جنب الكافتيريا ....خمس دقائق فقط

بدأ المكان يزدحم ،مجموعة من الشباب دخلوا بضوضاء صاخبة وهم يغنون، من ملابسهم الغريبة والقبعات القش على رؤوسهم خمنت انهم امريكان ، وحين جاء مورال قال- الافضل أن نخرج فبعد بضعة دقائق سيدب بينهم الخلاف الذي ينتهي عادة بالشجار بالأيدي،

بدأت أشعر إني أكثر الفة مع المكان، في هذه المدينة ما تزال روح الشرق تختبئ في زاوية من تمددها ،رغم الوقت ما يزال مبكرا فان مئات السواح يتجولون محولين الساحة الى مهرجان حي ،ربما دفع العديد من الشباب المتجمعين عند عازف كمان الى الرقص ، كان العازف يفرش امامه قطعة قماش سوداء ،كم رغبت أن أمسك يد عمر ونرقص ولكني ضحكت من هذه الفكرة الجنونية ،في بغداد سيقولون بنت حجي حميد ترقص في الشارع رغم اني استبعدت الفكرة الا اني كنت منتشيه لأنها عبرت في مخيلتي.

حين أخذنا الباص الى حي بنايا أنونيا فهمت من مورال أنه أحد احياء أثينا المتوسطة حيث سننزل عند أغنس أو ما ما أغنس كما يدعوها سكان النزل الصغير الذي تؤجر فيه الغرف المفروشة

كانت ماما اغنس في الثالثة والستين من عمرها ولكنها تبدو اكبر قليلا وهي ممتلئة تتعمد إهمال شعرها الأشيب ،كان وجهها يشي بالطيبة رغم التجاعيد

قال مورال -ماما تعرف شيئا من الانكليزية والتركية والعربية ، الا إن عربيتها خليط من المصرية والمغربية وبنكهة يونانية ، في أول ثلاث اشهر من زواجها عاشت في الاسكندرية مع زوجها اليوناني والذي يعمل في صيانة السفن ثم عادت الى أثينا بعد وفاة زوجها في حادث عرضي في حوض صيانة السفن في بور سعيد ، اشترت البيت الصغير وقررت ان تقضي فيه باقي حياتها ،يعرفها الكثير من المهاجرين والمقيمين غير الشرعيين في اثينا وقد تعرضت الى بعض المتاعب ولكن الشرطة كانت تتساهل معها

استقبلتنا مرحبة باليونانية فقال لها مورال –ما ما اغنس نحن عرب

قالت –مرحبا ،

كانت تلفظ الحاء إما هاء أو خاء

كم واحد-

ثلاثة ،قال مورال -

وتابع -عمر وزوجته غرفة حلوة وانا غرفة في الطابق الثاني قريبا من ا لسلم

ابتسمت ما ما اغنس وهي تغمز مورال لتأكد له إنها فهمت ما يقصد

قالت –الغرفة لاثنين بعشرين دولار مع الفطور ولشخص واحد مشترك بعشرة دولارات مع الإفطار ،الإفطار في الصالة ومن يرغب بالإفطار بغرفته عليه أن يقوم بأخذه طعامه.

كانت فتاة مغربية تسجل المعلومات ، ترتدي بنطالا كاكي اللون وقميصا أبيض فوقه بالطو طويل وعلى رأسها كاسكيت زرقاء ،اعتذرت لعدم قدرتها على المواصلة لأنها تعمل بوجبة بعد الظهر في مصنع خياطة

قال مورال وهو يوصلنا الى غرفتنا –أفضل ان تتناولا الإفطار في الغرفة وأن تحاولا عدم الاختلاط بالنزلاء وفي حالة رغبتكم بالخروج لا تبتعدا عن الشارع الممتد أمام البيت ،في الشارع مقاه ومطاعم مغربية ،

مساء سأغيب بعض الوقت

قالت صفية–أشعر اني متعبة ، سأحاول ان أرتاح

كانت الغرفة تطل على الشارع العام وعند الشباك كان هناك بالكون صغير صف الى الحائط كرسيان حديديان وطاولة خشبية تتوسطهما عليها مزهرية نحاسية وضع فيها زهرتا عباد الشمس ،على الكوميدونو الملحق بسرير النوم دورق للماء وقدحين ملفوفين بكيس نايلون شفاف

شعرت صفية انها متعبة حقا بعد ليلة حافلة في العبارة ونهار متعب ، كان الخوف والقلق أكبر من الاحساس بالتعب أو النعاس ، أما الان فهي مطمئنة إن الليلة ستنقضي هادئة وآمنه، لم تكن بحاجة لتبديل ملابسها ، انتزع عمر الحذاء من قدميها فتمتمت بصوت خافت وكأنها تحلم – شكرا

كان المساء يتقدم ليغمرحي(بنايا أنونينا) بظلال كثيفة تتحول الى ظلام في زوايا الشارع فقد كانت الكهرباء تعاني من ضغط في الاستخدام ،فيما كانت المقاهي المنتشرة على جاني الشارع قد سحبت كراسيها من الرصيف ووضعت لافتات كتب عليها باللغتين اليونانية والإنكليزية (الرجاء غلق الباب)

شعر عمر انه بحاجة الى شيء يأكله ،قالت ماما اغنس-ضع شيئا على رقبتك وانت تخرج

فهم عمر ذلك من إشاراتها

عند المقهى المقابل طلب كأسا من البراندي وسندويشة دجاج ،أخذ المشروب مرة واحدة ووضع السندويشة في جيب المعطف وقفل راجعا ،شعر بنشاط ، ابتسم لماما أغنس وصعد الى غرفته ، كانت صفية قد تخلت عن الغطاء فأعاده،

جلس على حافة السرير يتطلع الى وجه صفيه ،شعر إن هذه التجربة رغم كل ما فيها من معاناة وتعب قد حددت مصيرهما المشترك الى الأبد لأنها وضعتهما سوية أمام هدف واحد ، إنهما يقومان بكل هذا ويتخطيان كل العقبات من أجل أن يعيشا إنسانين ، فلا تقارير وشاية ولا امتهان لكرامتهما وإجبارهما على غلق منافذ التفكير في عقليهما ، ما هو رد فعل عبد الغفور وهو يجد ان شخصا قد ترك له بغداد على ان يتحول الى تابع ذليل مثل كلب الحراسة يستعديه صاحبه على الاخرين ليؤكد سطوته ا لقاهرة، كنت في الجامعة حين بدأ بعض الطلبة من عناصر حزب البعث بمحاولات لضمي الى الحزب تحت ذرائع مختلفة ،كنت أقول القانون والسياسة لا يتلازمان ،وأقول لزميل من بابل كنت أثق به ، القانون أصم والسياسة بألف أذن ،مجزة 79 لا تسمح للقانون أن يكون رديفا للسياسة .،يضحك زميلي ويقول لم اسمع شيئا

والان ،القانون يهرب من السياسة

في الصباح وهو يدلف الى صالة الافطار شهد مورال يتحدث بصوت خفيض مع شخص قصير القامة تلتمع عيناه بلؤم وهو يتحدث بعجالة ، لم يتدخل، استلم الفطور ، كانت ماما أغنس تجلس عند باب الصالة تتلهى بحياكة بلوفر صوفي ،

مدام نائمة-

لا ولكنها متعبة ، زرنا العديد من الأماكن في أثينا-

وهو يصعد الى غرفتهم تناهى الى سمعه لغط صاخب في الشارع ، حاول أن يستطلع

قالت ماما أغنس – لا

قالتها بحدة ووضعت يدها على أكرة الباب

قالت الفتاة المغربية وهي تقف عندهما –مظاهرات الطلبة احتجاجا على البطالة. رغم إن حكومة ستيفانو بولس في سنتها الاولى وهي تواجه تركة ثقيلة ،إلا ان الجماهير تستعجلها

قالت صفية –ماذا يحصل ؟

شرح لها بإيجاز

وهما يستريحان لشرب القهوة الساخنة التي جاءتهم بها ماما أغنس القى عليهما مورال تحية الصباح فقد كان الباب مفتوحا بعد خروج ماما اغنس

قال-اريدك لدقيقتين

بالتاكيد ستكون اكثر من خمس دقائق-

استأذن من صفية

قال مورال –الشخص الذي كان معي مصري مقيم من عشر سنوات وهو على صلة بكافة المهربين ولديه علاقات واسعة لأن هذا هو مصدر رزقه، وافق على تسهيل مهمة الجوازات والصعود الى الطائرة ،

هل الموضوع مضمون-

نعم ....وأنا سأكون معكما-

والمطلوب-

الفا وخمس مئة دولارا...لمجمل العملية .... الجوازات تأتي بعد يومين ،وفي - اليوم التالي نتوجه للمطار الساعة العاشرة والنصف حيث سيكون الشرطي المسؤول عن ختم الجوازات من جماعتنا ... ندفع ثمن الجوازات عند استلامها وهو تسع مئة دولارا أما المتبقي فندفعه للشرطي عن ختم الجوازات

بدا له ان الخطة على بساطتها ممكنة ، فحيث تسود الرشوة كل شيء ممكن، هذا ما قاله لصفية وهو يشرح لها المستجدات

قالت- لقد كنت مصيبا حين قررت أن تبيع البيت والسيارة ، ولكن مذا يفعل الفقراء

قال-يتشردون بين امواج بحر ايجة أو الأبيض المتوسط أو يتعفنون في أحد مراكز ايواء المهاجرين في اليونان

في الطريق وهما يبحثان عن مقهى مناسب في ميدان امونيا ،على الرصيف كانت امرأة غجرية تفرش قطعة قماش من ثلاثة ألوان وتضع أمامها بضعة أحجار وحصى ملونة ،حين التفت اليها عمر قالت بالانكليزية- انت محظوظ لانك تزوجت هذه الشابة ،كانت الغجرية ترتدي لباس فلاحات ريف أثينا وتضع على رأسها عصابة تتدلى منها شرائط مزينة بالترتر.

قالت صفية –لا عليك منها لقد تعبنا من مشعوذات بغداد

قالت الغجرية-ستكون العاصفة مدوية ،انتبه

قال عمر –صفية أرى ان نسمع منها

قالت –ثلاث دولارات ولكن يؤسفني أن أقول إن العاصفة لن تتركك بسلام

قال عمر –حسنا هذه خمسة دولارات

طوت قطعة القماش على الحجارة والحصى ثم وشوشتها وأغمضت عينيها برهة ،مر باص مسرعا فوق بركة ماء من مخلفات المطر فرشقتهم دفقات من الماء المخلوط بالطين ، تبرمت صفية وهي تنظف تنورتها فيما كان عمر منشغلا بما ستقوله الغجرية

قالت-ستصلان بلادا غريبة وستعيشان أياما سعيدة

انتبهت صفية و أصغت متلهفة أن تتعرف على المزيج

قال عمر –ثم

قالت – ستكونان في مكانين مختلفين , ولا تسألني ،خذ عروستك وتمتع في ميدان أمونيا فبعد قليل سيبدأ استعراض مدينة أثينا،

بدا عمر قلقا على نحو شعر بانه يخضع لعملية تنويم وإن الحجارة الملونة قد تنطلق في أية لحظة مثل طيور النورس حين تحوم فوق دجلة في نهار بارد تتسلل فيه أشعة الشمس في عمق النهر .

تركت الغجرية المكان وهي تضع الحجارة والحصى وقطعة القماش في كيس أسود دون ان تلتفت اليهما،

قال –عمر ولكن الدولارين

قالت –الرب يعوضك عنهما

لم تعلق صفية فقد وجدت إن الغجرية محتالة ، وان هذه اول عملية احتيال يتعرضان لها

في المقهى المفتوح على الساحة التاريخية وتحت شمس بدت جذلة وهي تنشر أشعتها على المجموعات المتنوعة من المتجمعين في الساحة او المنتشرين على كراس منشورة على امتداد القوس نصف الدائري حيث تتوزع مقاه بأسماء مختلفة ، حينما طلبا فنجاني قهوة تركية نظر اليهما النادل بشيء من الاستهجان وقال – لايوجد ...هل اجلب لكما قهو يونانية

قال عمر –لابأس

حين وضع النادل فنجاني القهوة ضحك عمر

يونانية-

نعم -

قال النادل باعتزاز

قال عمر- ولكنها تركية

قالت صفية- هما توأم ولكن لشدة التشابه فهو يحسبها واحدة

لم يرد النادل

كان نهارا رائقا استمتعا فيه بالاستعراضات الشعبية الجميلة وان تخللتها بعض المظاهرات الصغيرة لمحتجين ضد سياسة رئيس الوزراء ستيفانو بولوس، قررا أن يتناولان وجبة الغداء في الساحة بعد أن شاهدا مطعما مصريا يقدم شرائح الستيك بالبصل.

ابدى مورال سروه وهو يستمع الى شرح عمر عن قضائهما نهارا ممتعا في الساحة التاريخية

قال –كل شيء يجري حسب ما خططنا له ، كنت عند الشخص المعني وأكد ان الجوازات ستكون جاهزة ومختومة بالدخول

قال عمر – ولكن لم تخبرنا الى من سننتمي !

قال مورال -الدومنكان

قالت صفية-الدومنيكان مرة واحدة

قال مورال ضاحكا –نعم سيدتي مرة واحدة وستمزقين الجواز في مطار امستردام

كانت الساعة العاشرة ليلا ،عمر على الفراش الى جانب صفية التي كانت تغالب النعاس ،كان عمر يفكر بالسياقات التي أملت عليه أن يتعرض لهذه المغامرة ، لم تكن أوهاما ما دفعه الى أن يتخذ قرار الهروب ، كان محا صرا، وضعه القدر فجأة في عين العاصفة ، ولكنه لم يستسلم وقرار تغيير نمط ومسار حياته شعر إن هذا الاختيار من افضل القرارات التي اتخذها في حياته، كان والده يصر على أن يدخل الكلية العسكرية سيما وإن عمه كان عميدا في القوات الخاصة، ولكنه رفض لأنه لا يحسن قتل الآخرين.

الفصل الحادي عشر

كانت صورتيهما على الصفحة الاولى من الجوازين غريبة تحتهما اسميهما الجديدين وبدت الجوازات الثلاثة متقنة الصنعة ومقنعة ،تحول عمر الى كاستلو آشلي وصفية الى بياتريس آشلي ،

سأل عمر مورال– وأنت

. -ادريان فيليان .... الاكوادور تتحدث باللغة الاسبانية مع بعض التحويرات-

-ومتى نستلم التذاكر-

كنت أود الإشارة الى هذا ,كما تعلم لم نحسب ثمن التذاكر ومساء اليوم - سيعلمونني

قالت صفية –الى متى سنضطر الى الدفع

الى أن تصلا مطار امستردام ، في الطائرة قد نشتري شيئا-

ابتسم وغمز لعمر بعينه

الدولارات هنا هي الطريق الى امستردام-

شعر عمر انه ما يزال يرى في خطواته انها تنتهي بالنجاح رغم الكلفة العالية التي عليه أن يدفعها ،كما ان وجود مورال أشبه بهبة من السماء ،امتلأ قلبه بسرور جعله يشعر بالارتياح فيما كانت روحه أكثر اطمئنانا وجسده تغمره حالة من الاسترخاء اللذيذ، وضع كفه على رأس صفية التي نظرت اليه بتساؤل فقال

الحمد لله-

قالت صفيه-ما أخبار اوضاعنا المالية

حتى الان بأمان وعلى استعداد لشراء جاكيت بألوان الزهورالبرية-

وفرّ نقودك فما ز الت لدينا مهام كبيرة-

بدأ مساء أثينا مسترخيا وكأنه يتحرك ببطء فقد كانت الشمس ما تزال فوق البنايات المرتفعة تغمرها بأشعة ذهبية وتبدو المساحات في أسفل الضوء تفصلها ظلال شفافة والخط الفاصل بين الضوء والظل يرتفع بتكاسل ،

سنذهب الليلة بجولة بالباص في مدينة أثينا ، ألا ترين انها فرصة-

كانت صفية مندهشة من قدرة عمر على التفكير خارج نطاق مهمتهم في الخروج من اليونان ،فكرت انها تكتشف فيه صفة جديدة تتسم بالإيجابية، يمكنه ان يبعد اية أفكار أو ذكريات ويغرق تماما بفكرة طارئة، قال لها حينما ابدت استغرابها من قدرته على الجمع بين افكار متناقضة او حتى متقاطعة بحيث لا تتداخل على نحو يشوش تفكيره ، قال لها الوعي بالحاضر ببعديه الاني والمستقبلي يجب عزله عن ذكريات الماضي اولا ومن ثم عزل الاني عن المستقبلي ،وهكذا يستقيم تفكرك وهو يستوعب اكثر من فكرة ،ولكنها لم تستوعب ما قاله ودار بذهنها إنه يمازحها ساخرا ،

نعم فقد لاتسنح الفرصة بزيارتها ،ولكن ألا ننتظر مورال ، فقد تكون لديه افكار - جديدة

ربما ولكن لن ننتظره فمشواره قد يكون طويلا ، لقد ذهب الى شارع العرب - لترتيب التذاكر وموضوع المطار

شارع العرب ! من أين لك هذه المعلومات -

المعلومات من مورال وشارع العرب هو شارع أشارون حيث على جانبية مقاه - عربية وعلى الرصيف يبيع الغجر كل شيء تصوري إن الشارع يضج بالحلاقين العرب الذين يملأون الشارع ضجيجا بالأغاني العربية ، كل منهم الى جانبه منضدة صغيرة عليها مسجل ترتفع منه وعلى نحو صاخب أغنية يفضلها الحلاق ، الجغرافية العربية هنا لا تعرف الحدود ولا معاهدة سايكس بيكو ،

في الباص المكون من طابقين والذي لم يكن مكشوفا ، كان هناك بضعة سواح معظمهم من كبار السن يتطلعون الى المباني التاريخية باهتمام ويلتقطون لها الصور ،أمامنا كانت امرأة تتدثر بمعطف ثقيل رغم إن الطقس لم يكن باردا كما هي العادة ،كانت تحدث زوجها بصوت عال وباللغة الانكليزية ، قال عمر إنهما امريكان ،لم تعلق صفيه ،كانت منبهرة بالإنارة في ساحة مينا ،قال عمر موشوشا صفية انهما من سنسيناتي ، المرأة تخبر زوجها إن اقدم موقع حولته البلدية الى موقع أثري عمره مئتين وخمسين سنة ، فكتور... الاثار هنا عمرها اكثر من خمس مئة سنة قبل ميلاد السيد المسيح ،شعر عمر انه يود أن يخبرها إن الاثار في العراق عمرها أكثر من خمس آلاف سنة قبل المسيح ولكنه أحجم فقد بدا له الامر تطفلا لا مبرر له،

لم يكملا التجول في الباص فقد غادراه أمام سلسلة من المطاعم العربية ،كانت رائحة الشواء تملأ المكان فيما اكتظت المطاعم بالزبائن مما اضطرهما للانتظار حتى تشغر إحدى الطاولات

حين عادا بالتاكسي الى البنسيون كانت ماما اغنس تجلس الى التلفزيون تشاهد فيلما امريكيا قديما مترجما الى اليونانية وهي تتدثر ببطانية زرقاء طلبا للدفء ،القى عليها عمر التحية فردت باقتضاب لئلا يفوتها الفيلم .

في اخر الصالة كان مورال يقرأ في صحيفة انكليزية توقف ونظر اليهما بشيء من اللوم لأنه لا يحبذ خروجهما خوفا من تعرضها للسؤال من قبل الشرطة التي تتصيد دوريّاتها الأجانب.

أين ذهبتما ؟-

حول ساحة مينا -

صباحا سنستلم التذاكر وبالمناسبة باق لكما ثلاثون دولارا أفضل الاحتفاظ بها - فقد نشتري شيئا في المطار

ومتى نغادر ؟ -

بعد الغد نتوجه للمطار الساعة التاسعة مساء-

وكيف ستسير الامور هناك؟ -

عادي ...التذاكر والجوازات ستكون معي ومن المهم ان لا تتحدثا إلا باللغة - الانكليزية وأن تتجنبا الاحتكاك بالمسافرين حتى صعودنا الطائرة ، في الطائرة سنكمل الحديث ،

كان مورال جافا ورسميا وكأنه يعاني من نوبة إحباط بسبب عدم التزامهما بتعليماته ووجد انهما يتصرفان على نحو لم يكن يتخيله ، قالت صفية بعد أن استدار للصعود الى غرفته ، أفهم ما يفكر به ، لقد أصيب بخيبة أمل ، ربما تمادينا في ممارسة حريتنا ،قال عمر : طبيعي فنحن في أثينا بلد الديمقراطية الاول في العالم هل تعتقدين إننا سنحبس أنفسنا في غرفة ماما أغنس ؟

قالت صفية –محال

قالتها بتخابث فيما أشرق وجهها الأسمر كرغيف من الخبز الساخن ، شهيا وطريا باستدارة قمر أثينا الذي كان يعبر سماء داكنة الزرقة كزورق فضّي، تشهى أن يضعه بين كفيه ولكنه تردد فهي لا ترغب بالمشاعر المعلنة أمام الاخرين.

شعرت صفيه وهي تدلف الى غرفتهما أنها توشك أن تطير خفيفة يملؤها احساس بالتفاؤل ،غدا سيكونان على الطائرة الى امستردام ،متى سيأتي الغد ؟

سألت عمر الذي ضحك وهو يقبلها بحنان طاغ

سيأتي في الغد ....سننام وفي الصباح يبدأ الغد-

كيف سنعبر الى الطائرة ؟-

لن نعبر ...لا يوجد نهر في المطار ، من قاعة الانتظار الى ممر الدخول الى - الطائرة

لا تستغرب سأتشبث بيدك بقوة -

كانت كطفلة فرحة بانتظار ثوب العيد الذي ستجده في الصباح منشورا على الطاولة ،أشياء صغيرة قد تصنع الفرح في قلوبنا ،تذكرت الغجرية التي كانت تنظر نحوها بشيء من الاشفاق ،ونحن قد نصنع الشعور بالألم ،ابعدت نظرات الغجرية ،عادت تتخيل صعودها الى الطائرة وهي تتشبث بذراع عمر وتستمع اليه يتحدث بالانكليزية ملقيا نكتة قد لا تكون مضحكة ولكن الدور يتطلب أن تضحك ،اعجبها المشهد التمثيلي الذي عليها أن تتقنه بعفوية لتقنع شرطة المطار بانهما سائحان مترفان .....من الاكوادور الى اليونان، والان الى امستردام من أجل عيون رامبرانت .

قال عمر –بماذا تفكرين؟

قالت- بالغد

في الصباح الباكر ، أيقضهما مورال ،قال بانه ينتظرهما في صالة الافطار للحديث عن أخر تفاصيل السفر وانه سيستلم التذاكر وعليه ان يدفع 650 دولارا ، قال عمر سنكون في الصالة بعد نصف ساعة وانه لا داع لانتظارهما ويمكنه ان يتناول افطاره،

قالت صفية –كنت اودأن أظل نائمة

قال عمر –ولكنه الغد ،هل نسيت

! قالت –لقد ذكرتني

على عجل دخلا الحمام سوية لكسب الوقت وارتديا ملابسهما ،كان مورال يتحدث مع الفتاة المغربية وهو يتناول قهوته المفضلة والتي عادة ما تكون مركزة بدون السكر والحليب ،كانت الفتاة تبتسم وهو يتحدث وتتطلع الى الشارع الذي بدأ يشهد

حركة الاشخاص يتحركون مسرعين للحاق بالباص الذي يقف على ناصية الشارع ،من الواضح انهم موظفون عليهم الوصول الى مواقع عملهم

- اقدم لكما الانسة إنعام .....انسة انعام اقدم لك زميليّ صفية وعمر وهما عربيان مثلك ولكن من العراق ....والان ثلاثة ضد واحد

من الواضح إن مزاج مورال قد أصبح إيجابيا ورائقا ، فقد كان حديثه مشوبا بنبرة مرح واضحة ،فكرت صفية ،ربما لأنه نجح في تطوير علاقته بالفتاة المغربية لتكون اكثر ترابطا من القاء تحية الصباح في صالة الافطار !

قال عمر بعد أن غادرت الفتاة –هذا ثمن التذاكر ، والان ماهي المستجدات لديك

- حسنا ...عند نزولنا في مطار أمستردام سأفترق عنكما وقد نلتقي لاحقا وفي هذه الفترة لن تعمدا الى الحديث معي ...بعد نزولنا تتأخران في أول كافتيريا في الممر الى الجوازات ،تتناولان شيئا من الطعام ان رغبتما يجب الا يقل الوقت الذي تبددانه عن ثلاث ساعات تقومان خلالها بإتلاف الجوازات الاكوادورية والقائها في دورة المياه ...يمكن ان تقضيا وقتا أطول في التطلع الى السلع المعروضة في السوق الحرة ....بعد ذلك توقفان أي شرطي

قاطعه عمر ضاحكا –أو شرطية

قالت صفية –بعدنا على بر الامان

قال مورال –طبعا أو شرطية ،تخبرانها إنكم طالبو لجوء ،ستأخذكما الى كابينة الشرطة في المكان ثم تتصل بالدائرة المختصة للتحقيق وهو إجراء روتيني ولكنه مهم فإجاباتكما يجب ان تكون متطابقة ولهذا أمامكما فرصة طوال النهار لترتبا رؤية متناسقة عن سبب تركككما العراق وكيفية وصولكما ، مسألة مهمة تتعلق بالجهات التي ساعدتكما ...أنتما لا تعرفان إن كانوا يستخدمون أسمائهم الصريحة فكلهم (محمد) أو(حسن)....أما الجوازات فلم تسلم لكما فقد كان حسن هو الذي

أنجز كل شيء في تركيا وكانت الجوازات معه ....بعد ذلك سترحلان الى أحد مخيمات اللجوء .

كانت صفية تصغي بانتباه شديد فالدور أصبح اكثر جدية وأشد خطورة ،إنهم يدخلون في مشهد مختلف فهم سيواجهون لجان تحقيقية وأشخاصا متمرسين ولديهم خبرة ، لهذا فعليهما إتقان الدور الجديد بالتمرين عليه وتلمس الثغرات لسدها، شعرت مع زحمة الافكار والمواقف إنها تنفتح على عالم جديد ،قد لايكون واضح المعالم على نحو تستطيع فيه أن تحدد مسارها أو تتعرف على مكوناته لكنها تشعر به وتراه بصورته الشاملة والغامضة ،كانت دائما تحلم بعالم من الأمان والتفتح والحرية وهي تأوي الى فراشها ،ولكنها الان تعيش الإحساس بهذا العالم ،لم تعد تتذكر ما حصل في بحر إيجة فقد كان كابوسا لن يتكرر، أما ما يحصل الان فهو رؤية ،الكوابيس من الشيطان أما الرؤية فهي من الله ،شعرت بالاطمئنان وبقدر كبير من الرضا جعلها تبتسم وهي تمسك بكف عمر .

توقف مورال قليلا وتابع –يؤسفني أني أطلت عليكما بكل هذه التفاصيل ولكني أعتقد إنها مهمة وستجعلكم اكثر سيطرة على مخاوفكما وانتما تنتقلان من لجنة تحقيقية الى أخرى .

قال عمر –شكرا

كانت ماما اغنس تتطلع اليهم فهي تشاهدهم لأول مرة غارقين في حديث جاد يقوده مورال، انتبه مورال الى علامات الاستغراب على وجهها

- ماما اغنس عمر وزوجته يعبران لي عن إعجابهما بالسكن وبالإفطار الطازج ويقولان إنهما سيختاران السكن عندك اذا ما جاءا أثينا

كان يستعين بلغة بسيطة و يتلفظ كلماتها ببطء فيما يكمل إيصال المعاني لها بحركات يديه ووجهه وكأنه من مقدمي الإشارة في برامج الأخبار ، كانت ماما إغنس تبتسم فينتفخ خداها المكتنزان وبدت محرجة من هذا الإطراء

نهضت من مقعدها لتصب لهما قهوة من إبريق الى جانبها

قال مورال – قهوة خصوصي ،ستجدان الفرق

التزما بتوجيهات مورال فلم يخرجا بعيدا عن الشارع ،تناولا الغداء بمطعم مصري كان صاحبه يجلس على كرسي مرتفع عند الباب ، يدخن الشيشة ويحاول ان ينفث الدخان خارج المطعم ، يرحب بالزبائن بأسمائهم فمعظمهم زبائن دائمون عنده

الاخوان سواح-

نعم من العراق-

نهض عن كرسيه –أهلا بإخواننا من العراق ، المكان عند الشباك اكثر راحة

نادى على النادل – محمدين.. اهتم بالإخوان فهم ضيوفنا واطلب من الطباخ أن يهتم بطلباتهم

كان طعم قطعة (الستيك) لذيذا كما انها كانت هشة وطازجة ورغيف الخبز المصري الحار والمنفوخ بلونه الاسمر شهيا ، قال عمر إنه مسرور لتناوله هذه الوجبة وعند دفع الحساب أصر صاحب المطعم ان الوجبة على حساب المحل فيما كان شاربه الكث والمتدلي على جانبي فمه يهتز ، كانت صفيه منبهرة بكل الأجواء المحيطة والحفاوة الحارة واهتزاز شارب صاحب المحل، لم يوافق عمر والقى بضعة دولارات قال صاحب المحل إنها أكثر من الثمن قال عمر الباقي للنادل.

توقفا عند المقهى تحت البيت ، كان المحل صغيرا لا يتسع لأكثر من ستة أشخاص جلوسا ، لحظ عمر إن عددا أكبر كان يقف بالدور وإن الجميع يتحدثون العربية ، كان الشاي غامقا تفوح منه رائحة الهيل، كان (الأسطى) يقف خلف وجار إبريق الشاي المرفوع فوق منقلة نحاسية طويلة تتوهج فيها قطع الفحم ،حين طلب الشاي قال (الأسطى) -حاضر عيوني

شعرت صفية بهزة فرح تنتابها وهي تسمع الجميع يصرخون بصوت عال

اسطى... فد -

واحد شاي (سنكين) يرحم أبوك

شعرت إنها تسير في شارع القناة مساء نهار ربيعي ،عادت بغداد حية الى ذاكرتها ،تساءلت كيف يمكن لعمر أن يضع حاجزا يمنع الذكريات من أن تتدفق لتصبح جزءا من الحاضر .

حين استلقيا على السرير الخشبي الواسع شعرت صفية إنها متعبة وإنها بحاجة الى أن تستريح ، لم يسيرا كثيرا وكانت فترة جلوسهما في المطعم المصري وكانتين الشاي العراقي طويلة نسبيا ، قال عمر : التفكير واسترجاع الذكريات عملية متعبة أيضا وحينما كان يراجع قضية معقدة يشعر بالنعاس ولكنه لا يستطيع النوم حين يأوي الى فراشه وأحيا نا يتعرض للصداع بسبب ذلك .

مساء جاء مورال ليسلمهما التذاكر

قال-لا توجد عقبات فقد تم رسم كل شيء بدقة الشرطي الذي نتعامل معه في الكابينة رقم 3 وسأقوم بتسليمه الجوازات لختمها بالخروج ومن ثم نتوجه لصالة الانتظار لحين الدعوة للصعود الى الطائرة ، في الطائرة نحن غرباء ولن أتحدث معكما ، الباقي تعرفانه

في الساعة التاسعة كانت سيارة أجرة تقف أمام الباب طلب السائق من ماما أغنس أن تنادينا لم يكن معنا غير شنطة صغيرة وقنينة ماء ،كانت ماما أغنس في حالة تأثر واضحة وهي تودعنا ، قالت صفيه، لقد ارتحت لوجه هذه المرأة الطيب ، أشعر أني أعرفها منذ زمن ،جلس مورال في المقعد الأمامي وجلست وصفيه في المقعد الخلفي ، عند مدخل المطار كانت نقطة تفتيش ، لم يدققوا في الجوازات أطلعوا عليها وأعادوها حتى دون أن ينطق الشرطي بأية كلمة .

عند موظفة تسليم بطاقة الصعود الى الطائرة ، شعرت بالقلق وهي تطيل النظر في جواز سفري

قالت-هل الاكوادور بعيدة

قال مورال –نعم سيدتي فهي في امريكا الجنوبية ولكن شهرة تاريخ أثينا العظيمة يلغي المسافات

ابتسمت بشيء من الدلال فقد اعتبرت الحديث موجه لها كمجاملة إعجاب، كانت شقراء بوجه طفولي وعينين واسعتين يطغي على نظراتهما تعبير الدهشة ، قالت صفيه ، دلوعة ، قلت لا تبدأي مازلنا في أول مشوار أوربا، شعرت بقلق حين تقدم مورال بالجوازات الى الكابينة رقم 3 ، لم ارتح لسحنة الشرطي فقد كان يبدو كأحد رجال العصابات كما تعرضهم السينما الامريكية في مسلسل آل كابوني.

عاد مورال وعلى وجهه ملامح حيرة ، شعرت بقلق مقبض في حين قرأت صفيه اية الكرسي

قال مورال-كلب ....لقد كانت حصته ست مئة دولار ولكنه يطلب اربعمئة دولار لتمشيه الجوازات

قلت –حاول ان تفاوضه

حين عاد ثانية كان بين بين ،غير راض ولكنه غير زعلان

حسنا لقد وافق على مئتين وخمسون-

تم ختم الجوازات ، كانت فرحة منقوصة ،ونحن نأخذ مكاننا في الصالة ، بدأت الفرحة تتسع وهي تزيح الضيق الذي كنت أحس به ،كانت صفية التي التصقت بي تتطلع في وجوه المسافرين دون ان تتكلم .

الفصل الثاني عشر

كان مقعدينا 18 ب وأ في حين كان مقعد مورال 32 سي ،وهكذا افترقنا وكان لابد من الالتزام بتوصيات موريل ،لم نكن ننظر اليه ، كنا نتجاهله كأي من المسافرين الاخرين ، خلفنا كانت امرأة تبذل مجهودا للسيطرة على صراخ طفلتها المتواصل والمزعج ،كانت الطفلة في سنتها الاولى وقد أخافها اختلاف الضغط الجوي ،

كانت مشاعرنا موزعة بين الفرح وقلقنا من المجهول، فأخيرا نحن على مسافة ساعتين من امستردام، ، كانت تطمينات مورال مفيدة وحين أعرب عن خوفي كان عمر يحاول أن يبعدني عن هواجسي فيسألني ، ماذا سنجيب المحقق اذا سألنا عن عملنا في العراق ،كنت أجده محقا فعلينا أن نركز في الموقف وردة فعلنا أكثر من الشكوك في مواجهة مصاعب غير متوقعة ،لأن ذلك سيشتت تفكيرنا ويدفعنا الى القلق .

ما صرفني تماما عن التفكير بالموقف برمته هو تقدم شخص من المقاعد الامامية باتجاه المرافق ،كان طويل القامة رأسه المدور والصغير بدا كأنه قد استعاره للتخفي ،انفه معقوف وشواربه حمراء شعيرتها متباعدة وفي عينية نظرة اقرب للبلاهة ،ولكن الغريب والملفت للنظر كانتا رجليه ، طويلتان ولا ادري لم تصورت ان بإمكانه ان يقف على واحدة منها تماما كما يفعل مالك الحزين وهو يغمض عينيه ومدليا برأسه الى أسفل غير مبال بالعالم ،كان الرجل ينظر الى أسفل كما يفعل رجال الدين حين يفتعلون الحرص على عدم الوقوع في الخطيئة فيما خيالهم يصنع عالم البهجة الذي يعيشونه غالبا ،فكرت ان الرجل صادق فعلا وهو منشغل الان برغبته في الوصول الى المرافق على عجل ،لقد رسخ في ذهني هذا بسبب انطباع الضيق الذي ظهر على وجهه حين تقدم شخصان من المقاعد الخلفية ليقفا في الدور الى المرافق

قال عمر-هل تذكرت شيئا

لماذا ؟-

انت تبتسمين منذ لحظات -

ما دمت متشوقا .....هذا الرجل-

كنا نتكلم باللغة العربية فقد خشيت ان يفهم الرجل ما أفكر به ان تكلمنا بالانكليزية

هذه أول مخالفة لتعليمات السيد مورال .قال عمر وهو يضحك-

و الطائرة تأخذ طريقها الى الهبوط كان الفجر فوق أمستردام ينتشر كاشفا البحر والمنازل وغابات خضراء ،كان أحد موظفي الطائرة قد اعلن قبل قليل أن نربط الاحزمة وإن درجة الحرارة في أمستردام ثلاث عشر درجة مئوية ومطر غزير يستمر حتى العاشرة صباحا

شعرت بوجيب قلبي فتشبثت بيد عمر ألتمس الامان ، أبتسم ولكني شعرت انه . متشنج بعض الشيء و يبذل جهدا كي يبقى مركزا معي

وضعنا قبعات صغيرة على رأسينا كنا قد اشتريناها من أثينا ،كانت قبعتي حمراء بشريط اسود يلتف حولها فيما كانت قبعة عمر رصاصة بدا فيها مثل ممثلي هوليود في افلام رجال الاعمال ، تصورت إنا نقوم بدور سينمائي ايضا ولهذا يجب ان أعتني بهندامي ،

عند نهاية الخرطوم الذي يربط الطائرة بمبنى المطار كان هناك شرطية وشرطي يقفان يتفحصان القادمين ، كانت الشرطية ترتدي بنطالا اسود، علقت في حزامها جهاز هاتف و سلسلة مفاتيح وقيود لمن قد يلقى القبض عليهم، بيضاء بشعر كستنائي بقصة غلامية كما يقول نزار قباني ، أما زميلها فقد كان طويل القامة بجسد رياضي يقف فاردا قدميه كأنه يستعد لتلقي هجوما مفاجئا فيما ترفّ على شفتيه ابتسامة يحاول أن يجعلها مرحبة ولكنها تستعصي عليه بسبب الصلابة في عضلات فمه فتبدو لامبالية،

تذكرت نصائح مورال فتحدث بالانكليزية مع عمر عن الطقس ، نظرت الشرطية نحوي وابتسمت ،بعد دخولنا المبنى الذي بدا لي كبيرا وضاجا بالحركة ،كانت رائحة القهوة التي يتصاعد بخارها من مكائن منصوبة على الرف المقابل تملآ الممر ،

قال عمر ــسنتوقف عند الكافتيريا التالية فهي أكبر ومعروضات سندويش الافطار مشهية

طلبنا قهوة بدون سكر وسندويشي جبنة بيضاء ، الشاي في أثينا وفي المقاهي اليونانية كان عادة خفيفا ويسخر عمر بتسميته (شاي العرايس) كان أبي يسمي الشاي الخفيف (خضاضه) ويعني به الشاي المتبقي في الإستكانات والذي يختلط بالماء بعد غسلها ،لهذا كنا نشربه في المقهى العراقي القريب من السكن عند ماما أغنس.

بدأت الساعة تشير الى الحادية عشر حين حزمنا أمرنا على تسليم انفسنا الى الشرطة، قام عمر بتمزيق الجوازات الاكوادورية ورميها في المرافق ساحبا الماء لتندفع الى المجاري ،حين عاد كان وجهه منفتحا وكأنه يشعر بارتياح لما أنجزه.

انتظرنا بضع دقائق بانتظار رجال الشرطة ،قالت شرطية أفريقية ترددنا كثيرا قبل نتوجه نحوها

لا بأس اطمئنا واتبعاني-

لم نتبادل الحديث ولكن من الواضح ان كلينا محشو بأسئلة لا حصر لها ، كان الممر طويلا وسرنا على أحزمة متحركة ، توقفت الشرطية أمام غرفة جانبية وطرقت الباب الذي كان مقلقا فقد سمعنا المفتاح وهو يدور في القفل ،شرطية اخرى سدت الباب بجسمها.

-نعم-

-لاجئان-

تنحت وهي تفتح الباب ، كانت في نهايات الخمسين يحمل وجهها انطباعا جادا فيما تبدو عيناها متعبتان، فتحت سجلا أمامها وقبل ان تدعونا للجلوس دونت اسمينا وبلدنا وتاريخ الميلاد

تفضلا بالجلوس-

كان في الغرفة خمسة أشخاص ،ثلاث نساء وشاب في العشرينات ورجل طويل أسمر البشرة عيناه معلقتان بالباب وكأنه ينتظر زائرا ، جلسنا على المصطبة الخشبية التي وضع عليها مقاعد زرقاء بدت جديدة ،لم نتبادل الحديث مع أحد ،. بدا إن الحضور يستعيدون في ذهنهم الإجابات لأسئلة متوقعة

نادت فتاة في العشرين شقراء على عمر ،كان وجهها مستطيلا وقد ربطت شعرها الى الخلف بشريط بني تتدلى نهايته مع الشعر المتأرجح على ظهرها،

ربت عمر على يدي وهو يغادر ،بعد أن أغلق الباب وراءه شعرت إني أعود الى نفسي أذاكر إجاباتي المتوقعة و أدعو الله أن يساعد عمر ،تذكرت غجرية أثينا سنفترق ... شعرت إن قلبي يتعصر تحت ضغط الكلمة ،أعلم أنه حين يكون الإنسان وحيدا وقلقا فإن أسوء الافكار هي الأقرب الى تفكيره ،قرأت أية .الكرسي مرتين

حين خرج عمر كان متعبا ولكنه لم يكن خائفا أو قلقا ،كان كتلميذ يخرج من قاعة الامتحان وهو غير واثق تماما من إجاباته رغم انه كتب كل ما يعرفه،

جلس الى جانبي ، أمسكت بيده ، قال تماما كما ناقشنا الموضوع وما فهمته ان هذا تحقيق إبتدائي ، لقد فتشوا ملابسي قطعة قطعة وكذلك الحقيبة ،وقلبوا دفتر , الهاتف

نادت الفتاة الشقراء –أحمد حسين

قام الرجل ذو النظرات المترقبة ، أتاح لنا ذلك المزيد من الوقت ليحدثني عمر بالتفاصيل كنت أفكر ببغداد التي غاب عنها الفرح ،لماذا لم أسأل الغجرية في أثينا عن مستقبل بغداد , كنت أنانية.

كانت الفتاة الشقراء تناديني ،لم أنتبه فقد كانت تلفظ اسمي وكأنه لامرأة اخرى،

سافي يا ...قلت لها ، كلمة واحدة سافيه ، قالت ليس مهما ، أنه دورك ، ضحك عمر وقال –سافي يا ، ربما اعتقدت انك افغانية

حين دخلت غرفة التحقيق شعرت اني بمعزل عن العالم ، وحيدة ومكشوفة، منضدة خشبية يجلس اليها شاب في الثلاثينات لا يشي بأي انطباع يقلب بعض الاوراق أمامه ،الفتاة الشقراء تقف وسط الغرفة ، موسيقى هادئة ، كانت عزفا على البيانو ،تذكرت العازفة الانكليزية التي قدمت حفلا في بغداد تضمن معزوفات شوبان ، ستارة من القماش تأخذ وراءها مساحة كافية للتخلص من ملابسك لغرض فحصها وتفتيش جيوبها ، الإسم ،المهنة ، تاريخ الميلاد ، مكان السكن ، مكان الولادة ، أسماء العائلة ، الأب ، الأم، الإخوان ، الأخوات ، أبناء وبنات، العم والخال ، الأصدقاء

لماذا ليس لديك نقود-

النقود مع زوجي-

اسم الزوج-

كان الشاب يدون إجاباتي باللغة الهولندية ، كنت أجلس على الكرسي عند الطاولة في الجانب الثاني ،

-كيف وصلتما الى مطار سخيبول-

شرحت له رحلتنا الى تركيا- أمستردام ،

من هو المهرب او المهربون الذين ساعدوكما-

-كم دفعتم لهم-

نظر الي وهو يرفع رأسه ،

باية جوازات خرجتم من مطار أثينا ؟-

أخبرته بأني لا اعرف شيئا لأن المهرب يحتفظ بالجوازات وهو الذي قدمها للموظف المسؤول عن ختمها ،وصعد معنا الى الطائرة ثم تركنا في أحدى كمفتريات المطار وغادر بعد إن أكد على أن ننتظر ثلاث ساعات قبل تسليم انفسنا للشرطة

لماذا غادرتم العراق ؟-

وقعت على الإجابة ، كان عمر مسمّرا في جلسته ،عيناه ثابتتان على الباب ، حين خرجت قام يستقبلني

كانت الساعة الخامسة حين طلبت الفتاة الشقراء من جميع الذين تم التحقيق معهم بأن يتبعوها ..تم عزل النساء عن الرجال وسلموا كلا منّا سريرا, في السابعة قدموا لنا قهوة مع قليل من الحليب وسندويشة جبنة طرية مع بعض الخضار، كانت النسوة افغانيات يتكلمن بلهجة حادة وبنبرة عالية ،سودانية طويلة ترتدي ملابس جنوب السودان وعلى رأسها عمامة زرقاء ،كانت تنادي على إبنها الذي كان يتنقل بين الأسّرة بفضول ،ربما كانت تعتقد إنها ما تزال في إدى غابات السودان فقد كان صوتها مجلجلا ترتج له الممرات بين القاعات ،كنت أعتقد أني سأظل صاحية حتى الفجر بسبب بعدي عن عمر والضجة التي تحصل ،ويبدو إني كنت مخطئة، غفوت يأخذني حلم متداخل الرؤى والاحداث وكأنه لوحة سريالية ليس من السهل معرفة ما ترمي اليه ، يقال ان الاحلام . رؤى شيطانية ويبدو انه شيطان من أنصار الحداثة التي نفذها سلفادور دالي

صحوت على صوت السودانية المجلجل تبحث عن ابنها ،دعانا موظف بدا لي إنه عربي البشرة والنظرات للإفطار ، كان المكان صالة كبيرة انتشرت فيها

طاولات دائرية مغطاة بشراشف بيضاء وعليها أربع أكواب عند كل منها سكين وشوكة وفي الوسط إناء فيه أكياس سكر وحليب ،كان عمر قد سبقني، شعرت بفرح طاغ فقد كنت بحاجة لأن أراه وأحدثه ،نهض لاستقبالي فاردا ذراعيه ، لأول مرة منذ زواجنا أترك تحفظي وأرتمي بين ذراعيه وسط القاعة ولأول مرة ايضا ألحظ إن لا أحد اهتم بهذه الحركة ،كان الجميع مندمجين في حديث عن ليلة أمس و ماذا عن اليوم وهم يقشّرون البيض الذي أخذوه من السلة الكبيرة على طاولة الطعام،

كنا بعد نتناول القهوة حين جاءت الشرطية الشقراء

بعد الانتهاء من تناول الافطار أرجو أن تقابلني . كانت توجه الحديث الى عمر-

خير-

انت تتكلم الانكليزية ونحتاجك-

كانت تقف أمام غرفة التحقيق ،

اجمعا حاجياتكما وتعالا-

حين عدنا كان الى جانبها السودانية ذات العمامة تمسك بيد ابنها بقوة فيما يحاول الافلات، وثلاث رجال وصبي في السادسة عشر

-اولا هذا العنوان الذي ستذهبون اليه، وانت ستكون قائد المجموعة المجموعة-

سلمت عمر العنوان وتذاكر القطار الذي قالت انها ستقوم بتعريفنا به ،

قلت لعمر – وحدنا ؟

-لم افهم-

-أعني دون شرطي أو حارس لضمان وصولنا-

وأين سنهرب ؟-

الفصل الثالث عشر

قبل أن نصل الباب الزجاجي الكبير والمظلل في نهاية الممر، وصلتنا أصوات متداخلة كأنها لغط غير واضح ،كانت الشرطية تتقدمنا وكنت وصفيه خلفها مباشرة تتبعنا المجموعة ، الجميع صامتون عدا مجموعة المفاتيح المربوطة الى حزام الشرطية فقد كانت تصدر صوتا مكتوما ورتيبا ،فيما كان مسيرنا على أرضية الممر المفروش أشبه بالذهاب الى سرادق العزاء، صامتا مترقبا بانتظار الانطباع على وجوه مستقبلي المعزين ،وما بدا لي غريبا هو صمت الطفل السوداني وهو يستسلم لقبضة أمه القوية .

حين انفتح الباب فوجئت بأعداد الاشخاص الذين كانوا يتحركون بكل الاتجاهات بعضهم يسحب حقيبة وراءه وبعضهم يضعها على ظهره ، كان الكل يتحدث وكانت اللغات متباينة ،عشرات الأكشاك وراءها فتيات يبتسمن بحكم الواجب ، بعض الأشخاص كانوا منزعجين يتكلمون بعصبية وهم يلوحون بأيديهم ،كانت الإضاءة مبهرة فيما كانت رائحة القهوة والمعطرات تنتشر في فضاء المكان .

تقدمت الشرطية نحو سلم الى الطابق الاسفل حيث موقف القطارات عند المطار

هذا العنوان مع محطات تبديل القطار حيث تتجهون لا بد من تغيير القطار - مرتين الاولى في محطة امستردام المركزية والثانية في محطة بريدا ،في الورقة ذكرنا هذا ، عند نزولكم في محطة(بوكس مير) تتصل بهذا الرقم لطلب تاكسي ، لا ،تنسى ان تخبرهم إنكم سبعة أشخاص ولا تنسى أيضا أن تعطيهم رقم الكود.

سلمتني سبع تذاكر كانت تقف تتطلع الى القطار القادم ثم ساعدتنا على الصعود وتمنت لنا رحلة سهلة .

حين جلست على الكرسي الجلدي شعرت إني ابتعد عن عالمي في بغداد على نحو بدا لي انه ذكريات قديمة علي أن لا أعاود التفكير بها الان على الأقل ،

التصقت صفية بي وهي تمسك ذراعي بقوة

الحمد لله-

وضعت يدي على كتفها-

الان الموضوع برمته مسألة وقت ، ربما تكون بعض مقاطعه صعبة أو متعبة - . ولكنه وقت سرعان ما يمر

كان قاطع التذاكر بلباسه الرسمي يضع حقيبة صغيرة على جنبه وفي يده دفترا صغيرا ربط اليه قلما ،

التذاكر-

قالها باللغة الهولندية ولكني عرفت ما يريد لأنها تنطق كما هي في الانكليزية، تطلع الى المجموعة

لاجئون-

نعم-

ثقب التذاكر وأعادها

-اشتوبليف- (تفضل)

كانت الكلمة ثقيلة وصعبة ، تطلعت اليه

تفضل .قالها بالانكليزية-

كانت المجموعة التي معي صامتة و السودانية كانت تدندن لإبنها الذي كان يتظاهر بالنوم في حضنها ،حين التفت اليها ابتسمت بدت اكثر حدة وجدية

هذه زوجتك . قالتها بانكليزية بالكاد فهمتها-

نعم-

انها جميلة -

.شكرا.... أنت من الخرطوم-

تطلعت بشيء من الاستنكار

من جوبا ،أنا كاثوليكية وسيكون رياك كذلك ، -

تغيرت نبرة صوتها لتكون أكثر عمقا وصفاء ونظرت إلي بفضول وأنتما مسلمون مثل هؤلاء الافغان

مثل هؤلاء الافغان ،-

قلتها بلهجة ساخرة ومحتجة لأني لم أسألها عن دينها ،فكرت انها تدافع مسبقا عن هويتها كما يفعل عادة أ بناء الأقليات بفعل حسهم القومي ،صمتت . وعادت تدندن بلغة أقرب لنداء الادغال في افريقيا

كانت محطة امستردام مزدحمة وعلى الجانبين مواقف لعشرات القطارات المتوجهة الى كافة المدن الهولندية ،حاولت أن أستطلع عن قطارنا الى بريدا في الجدول الإلكتروني وسط المحطة ،ولكني فشلت لسرعة التبديلات ، سألت شرطيا كان على مقربة ،تطلع نحو الجدول الالكتروني وقال- الرصيف رقم 6 . سيكون مهيئا بعد نصف ساعة

. قالت صفية – ارغب بالذهاب الى المرافق لأغسل وجهي

انتبهت الى أنها لم تضع اي من المساحيق التي تأخذ بعض الوقت كل صباح واكتفت برشة عطر ذهبت رائحته ، شعرت برغبة ناعمة وحميمية ان اقبلها، كان على الرصيف المقابل شابان يتعانقان وكأنهما خارج حدود الزمان والمكان ،لم يكن أحد من حولهما مهتما عدا عجوز بيدها عكازة حديدية ، نظرت اليهما وابتسمت وهي تجلس على المصطبة الخشبية تتطلع الى القطار القادم و هو . يطلق صفارة طويلة

بدأت حركة أنشط تسود في المكان بعد توقف عشر قطارات دفعة واحدة تحت شاشات تلفزيونية تحدد مسار القطار ومحطات التوقف ،

قالت صفية –هكذا هي الحياة قطار يتوقف في محطات لينزل منه ركاب ويصعد اليه آخرون ،تجدد في كل ساعة والحياة تستمر

حين ترتاح الأنفس فهي إما الى الغناء تتجه أو الفلسفة-

! ولأن الغناء مستحيل فالفلسفة أقرب-

بدأ رياك يتمرد ،اندفع الى الرصيف يتطلع نحو خطي السكة الحديد، انتفضت أمه لتصرخ بصوتها المجلجل محذرة: رياك

ركض نحو ماكنة معبأة بالمشروبات والشكولاته

كانت السودانية تتكلم بلغة لم أتبينها وهي تتحدث الى ابنها الذي بدأ بالصراخ رافضا الانصياع لدعوتها بالعودة الى المصطبة ،توقفت أمه عند ابنها لقلب جيب سترتها ،أخرجت علبة كولا واصبع شوكولاتة ،أخذها بفرح غامر

حين وصل القطار النازل الى بريدا جنوبا كانت الساعة الحادية عشر صباحا، تأكدت من صعود المجموعة فقد كنت أعتبر نفسي مسؤولا عن وصولهم، تعلق الطفل بيدي وهو يصعد وحاول أن يجلس بجانبي ولكن أمه سحبته وهي تردد . انها آسفة لسلوك إبنها

كانت الرحلة مريحة ومثيرة فقد كان العشرات يتركون القطار ليصعد غيرهم،البعض شباب يغنون وبعضهم يضحك بصوت صاخب فيما تحاول الفتيات .أن يتظاهرن بأنهن غير متحمسات للمشاركة بهذا المرح العلني والجماعي

في بريدا تركنا القطار نبحث عن الرصيف الذي ي توقف عنده القطار المتجه الى بوكسمير ،قال موظف يتجول على امتداد الرصيف ،رصيف 3 وسيتحرك القطار بعد عشرة دقائق

حين صعدنا الى القطار لحظت ان عرباته قديمة قياسا بعربات قطار بريدا، كما ان موظف قطع التذاكر فتش العربات مرتين وكان هناك بعض المخالفين الذين سلمهم ايصالات بدفع الغرامة ومن الملفت انهم لا يحملون سمات هولندية وقد

فهمت من امرأة كانت في الكرسي المجاور أنهم من اللاجئين بالمخيم القريب ،كانت قد تجاوزت الثمانين شعرها الابيض مرتب بعناية بقصة قصيرة وترتدي سترة بيضاء تحته كنزة صوفية ثقيلة وبنطالا بزهور غريبة بلونين،

.. انتم ايضا لاجئون-

لم تنتظر جوابي وتابعت-لقد ازداد عدد اللاجئين ...العالم يفرغ نفايته في اوربا.

كانت لغتها الانكليزية واضحة وربما تجد لذة في إنها تجيدها ولهذا كانت تنطق كلماتها بهدوء وكأنها تريد أن تتأكد إنها أوصلت ما تفكر به ،

قالت صفية ،لا ترد عليها

اوربا بحاجة لأن تجدد نفسها وإلا ستنتهي الى خارج التاريخ-

التفتت نحوي بدهشة تبدت في اتساع حدقتي عينيها وكأنها تكتشف أمرا غاب عنها

انت رجل مثقف وأنا أحترم الثقافة في العالم ، لقد زرت الصين والهند وذهبت - الى القاهرة لاشاهد عن قرب ثقافات العالم

يسرني التعرف بك ،أنا عمر-

شكرا وأنا (خوردة) -

قرصتني صافية وهي تكتم ضحكة كانت ستحرجنا ....خردة .. !!منذ خروجنا من العراق لم تحدث امرأة ...وتتعرف الان على خوردة ....مبروك يمكن أن . تهتم بتجميعها

كان رياك يقف الى جانبي حينما توقف القطار في محطة بوكسمير ،تمسّك بي ونحن نغادر القطار ،كان لدى صفية قطع شوكولاتة دستها في يده ،سألت . الشرطي عند بوابة الخروج عن هاتف عمومي

على الجانب الاخر كانت أمرأه تتحدث بتكاسل ، عرفّتها بنفسي وأعطيتها الكود الذي استلمته من مركز التسليم في المطار ،قلت لها اننا سبعة أشخاص ، قالت . عليكم أن تنتظروا نصف ساعة

قالت ا لسودانية – كم تبقى على الوصول للمخيم

حوالي الساعة-

ياإلهي ... أشعر بالجوع-

قالت صفية –يبدو انا سنفتح مطعما كلنا جائعون

أمام البوابة الرئيسة كان هناك كرفان مفتوح ،في الداخل امرأة ممتلئة شعرها أشعث وسحنتها شرسة فقد كان الانطباع على وجهها متجهما وكأنها تبحث عمن تتشاجر معه ،كانت تضع في مقلاة كبيرة امامها كرات بنيّة اللون ترميها في المقلاة لدقيقتين ،حين سألتها بالانكليزية عن السعر ردت بالهولندية وحركت يدها وكإنها تقول اغرب عن وجهي !، شاب كان ينتظر الكرات البنية لتبرد ، قال –هل تريد من هذه الكرات؟

اولا ما هي هذه الكرات-

عجين وخضار والعنب اليابس وبعض البهارات التي لا أعرفها ...ولكنها - . الطعام الأكثر شهرة في هولندا

رجوته ان يطلب من البائعة ان تحضّر سبع صحون ورقية في كل منها ثلاث كرات ،دعوت المجموعة الى الكرفان ، لم تكن الكرات مشجعة ، كانت أمي تعمل شيئا مشابها ونحن صغار ولكن كان ذلك مغايرا في طعمه لأنه يحتوي على , السكر وينقع في محلول السكر المغلي

الباص الصغير الذي وصلنا لم يحتاج سائقه الى البحث عنا ،كنا آخر من تبقى في المحطة الصغيرة ، ترجّل وفتح الباب ،كان نحيلا بلحية مشذبه ووجه أسمر بملامح مغربية ،كرر ذات الكلمة التي قالها قاطع التذاكر وهو يعيد تذاكرنا بعد

تثقيبها ،كان وقعها غريبا ومميزا ولهذا رسخت في ذاكرتي رغم اني لم أكن قادرا على النطق بها .

الطريق الى المخيم ذكرني بالطريق الزراعي الى التون كبري في الربيع ، زهور الشقيق الحمراء تتفتح للشمس وللندى وزهور برية بيضاء وصفراء تتناوب في المساحات الصاعدة الى قمم الهضاب على الجانبين ،كان طريقنا قصيرا ولكن مزارع الذرة كانت تنشر رائحة طرية ، رائحة العشب حين يتم القيام بحشّه ،تتناوب مساحات مفتوحة تفصلها سواق رقراقة لتمنع الابقار الهولندية من العبور الى الشارع، الشمس التى تغمر الكون بأشعة ذهبية كانت تختفي في تشابك كثيف لأوراق نبات الذرة وهو ينهض بزهو أخضر .

عند بوابة عريضة توقف السائق يتبادل حديثا حول الدخول ، فتحت البوابة ، بعض ساكني المخيم كانوا يتطلعون الى القادمين الجدد بفضول ،تقدم موظف بيده ورقة ...نادى بأسمائنا وطلب الدخول الى غرفة الادارة ، مكتب عريض عليه جهاز كومبيوتر وكنبات على الجانبين وبضع كراس بلاستيكية، بعد التأكد من شخصياتنا تم اعطاءنا ارقام الغرف المخصصة ،كنت وصفية في غرفة واسعة في اخر الممر لمبنى قديم كان معسكرا للقوات الألمانية التي احتلت هولندا في الحرب العالمية الثانية ،كان المبنى منعزلا في منطقة زراعية واسعة ، البيوت المجاورة على بعد أكثر من خمسمئة متر ،وقد وجدت إن السكان من الأسر الهولندية الميسورة فقد كانت البيوت داخل مساحات خضراء واسعة ومسيجة بالأسلاك الشائكة تمرح خلفها كلاب حراسة مقاتلة ، فضلا عن ثلاثة او أربعة من الخيل التي تتطلع الى المارين في الشارع المجاور بفضول، أما الكلاب فقد كانت متحفزة باستمرار للقتال وفي عيونها نظرات استغراب من أ ية ريح حملت هؤلاء الى هذه المناطق الهادئة .

قال السائق الذي أوصلنا الى غرفتنا بعد أن فتح بابها

يمكن التأكد من كفاية الأغطية والشراشف وعمل أجهزة التدفئة ...الماء هنا - من الصنبور مباشرة ولا حاجة لشراء قناني الماء

ولتطميننا قام بشرب الماء من الصنبور في الغرفة ،كما قام بتشغيل جهاز التلفاز وشرح لنا كيف يمكن استقبال بعض القنوات العربية

قالت صفية –نحن الان في بداية طريق أكثر أمانا ....أريد أن أستلقي على الفراش للراحة

كانت الشراشف نظيفة انتشرت منها رائحة خفيفة ،قالت صفية –انها رائحة الفلاندرز

في المطعم نتناول ثلاث وجبات يوميا وبعد كل وجبة نتوزع على شكل مجموعات عشوائية في بداية تواجدنا ، ولكنها سرعان ما أصبحت معلومة لتوافق الرؤى والثقافة .

كانت صالة المطعم تتسع لأكثر من خمسمئة شخص في آن واحد وكان العدد مكتملا فقط أيام توزيع الدجاج وقت العشاء ، كانوا يدفعون لنا مبلغا بسيطا مصروف جيب ،بعد إسبوع ابتدأ يتصل بنا محام كلفته وزارة العدل ،كان معه اوراق التحقيق الذي أجري معنا في المطار وكذلك في المخيم ثاني يوم وصولنا ، قال يمكنني الجزم بأني استطيع أن أحصل لكما على لجوء انساني ، ولكن الامر لم يكن بهذه البساطة ،فقد رفض الطلب.

قال أبوعلي وهو مهندس نفط – يمكنكم طلب تغيير المحامي ، المحامية التي أعرفها على كفاءة عالية وهي متخصصة في اللجوء

كان ا بوعلي الذي سألته صفيه عن اتجاه القبلة لتحدد توجهها عند الصلاة مسحيا ، لم يقل هو ذلك ،عرفته من رسالة وردت اليه من زوجته في بريطانيا.

كان ابو علي شخصا حاضر النكتة و يعلن الحاده حين يدور الحديث عن الدين، الامر الذي كان يتكرر كل يوم بحكم تنوع سكان المخيم والذين كان معظمهم من

الجماعات الدينية المعارضة للنظام في العراق ، كما كان على استعداد لمساعدة الجميع .

كانت المحامية شابة بادية الجد ودقيقة في بحثها عن منافذ لإقناع وزارة العدل، بعد أسبوع اتصلت بي لتقول –سيد عمر هل تقبلان باللجوء الانساني ؟

-نعم . أجبتها على عجل-

حسنا دعني أسمع ذلك من زوجتك-

قالت صفية –نعم كما قال زوجي

ضحكت المحامية-لا.... ماذا تقولين أنت ، سيدتي أنت في هولندا ، إنها مملكة المرأة ،أرجو أن يكون رأيك بقناعتك

عند البوابة الرئيسة كانت ثلاث سيارات للشرطة تقف بالتتابع أمام البوابة غالقة المدخل فيما أضويتها الحمراء تعطي انطباعا بان أمرا في غاية الخطورة يحدث في الداخل ، انكمشت متشبثة بعمر ، توقف السائق وترجل ليستطلع ، عدد من رجال الشرطة بملابس سوداء وخوذ عسكرية وفي احزمتهم مسدسات وقيود حديدية وفي ايديهم اجهزة اتصال ، كان المنظر كأن حربا وشيكة ستقع ، شعرت بخوف شديد ورغم إني دفنت رأسي بصدر عمر إلا أن الفضول كان يدفعني لمتابعة المنظر ، خرجت سيارة مما يستخدم في نقل المجرمين جانبها الأيمن مشبك حديدي ، كان خلف المشبك أبو جعفر وثلاثة من أولاده ،كان الجميع صامتين بحكم الخوف والرهبة ، في عيونهم هلع وعلى وجوههم رعب ثبت نظراتهم على الشارع ، ,و راء السيارة كانت ام جعفر بعباءتها السوداء وبدون غطاء الرأس الذي تلبسه عادة وهي في المطعم أو في الممر الصغير أمام سكنهم في المخيم ، كانت تبكي وتصرخ بحرقة وهي تقسم ان ابو جعفر بريء وانه لم يكن يقصد ما قاله ، انطلق الجميع وفتحت البوابة ،

قال السائق- هذا الرجل مجنون ....كان الشرطي يبلغه برفض طلبه اللجوء ومن حقه أن يستأنف كما جاء بقرار المحكمة فأقسم انه سيحرق المخيم ,امام سكن أبو جعفر كان عدد من اللاجئين متجمعين ، بعضهم كان يتأسف لأم جعفر وعدد منهم كان يعتبر إن ما شاهده مشهدا كوميديا يدعو الى الضحك فقد كانوا يتابعون المطارة بين الشرطة وأبي جعفر وأولاده ،

قالت موظفة تقف مع المتفرجين وهي تدخن –هناك دائما خطر في المزاح مع الشرطة ، سيعيدونه مساء

كان أولاد أبي جعفر اربعة ،

قالت فتاة كانت تقف على مبعدة –هرب الرابع

كان أبو جعفر يفرض وصايته على المدخل ، وحين تقدم بعض الجمعيات الخيرية هدايا لمساعدة اللاجئين كان ابو جعفر يستلمها ويتعهد بتوزيعا وفي الحقيقة كان يوزعها على نحو يعكس علاقاته بنزلاء المخيم

قال عمر –لا أرتاح لهذا الشخص

في المساء عاد أبو جعفر وأولاده الثلاثة أما الرابع فقد قرر أن يستقر في المانيا .

كانت إدارة المخيم تقيم نشاطات متنوعة بعد وجبة الغداء عادة ، تتوزع هذه النشاطات على حفلات موسيقية وتمثيلية وأحيانا تنسق مع الموهوبين من النزلاء فتقيم حفلة غنائية ، وعادة ما تكون بعد العشاء ،وكانت معظم هذه الحفلات باللغة الكردية ،كان المخيم يضج بالحركة ويفور بالأحلام والأماني، الجميع يفكر بالحصول على الموافقة ببقائه والانتقال الى سكن خاص،

في الاسبوع الثاني لإعلامنا باللجوء الانساني استدعتنا الادرة لتسلمنا كتاب نقلنا الى مدينة لاهاي كما ابلغونا أن نحزم حاجياتنا بانتظار السيارة التي ستقلنا الى العنوان الجديد

فور انتشار الخبر في المخيم قرر مغن كردي كان عمر يتحدث معه عن كردستان والطموح الكوردي بالدولة وبالوطن ، كان يضرب على الدف وهو يغني ، وكتحية حب غنا بالعربي أيضا ، وقد استطاع ان يستقطب معظم النزلاء ، وفي ساعة متأخرة قدم لنا أبو علي هدية صغيرة تذكارا عن أيامنا في المخيم

صباحا غادرنا المخيم ،كان نهارا مشمسا يحمل النسيم الذي يمسح الحقول رائحة عذبة ،

قلت لعمر-نحن في بداية الطريق

قال-نحن الان نسير بإرادتنا

الفصل الرابع عشر

على جانبي الطريق الى لاهاي كانت مساحات خضراء تسترخي فيها ابقار مترفة ،واحيانا نمر بحقول للزهور على شكل مستطيلات كل بلون تمنحني بهجة وشعورا مفعما بالراحة ،كنا مأخوذين بمستطيلات الزهور، ازرق، أحمر وأصفر كل مستطيل بعرض 50 مترا وبطول ربما اكثر من ثلاثمئة متر، كنت استنشق الهواء الرطب الذي يعبر الحقول الى الشارع ،

!قالت صفية –سنعيش هنا

تحاول أن تتأكد ، كان صوتها عميقا و بدا إنها تتحدث الى نفسها ،غامت عيناها فأغمضتهما لتحتفظ بالحلم الذي يملأ كيانها بالطمأنينة ،أمسكت بيدها فتطلعت إليّ كمن يستفيق من إغفاءة خفيفة وابتسمت .

حين دخلنا مدينة لاهاي بدت لي كأنها قد استنسخت شوارعها ومبانيها من نسخة أصلية قبل الحرب العالمية الاولى ووزعتها على أحياءها المختلفة، شعرت إني ربما أتيه إذا ما خرجت يوما للتسوق وإن علي أن أرقّم مساري لأضمن عدم فقداني طريق العودة ،تعطي المدن التي ندخلها لأول مرة انطباعا مشوشا وغائما وأحيانا مشوقا حتى نتعرف عليها عن كثب .

توقف السائق الذي لم يتكلم طوال الطريق عند باب عمارة من ثلاثة طوابق، كان الباب الحديدي مقفلا ،ترجل وقام بإلقاء نظرة الى المدخل علّه يجد شخصا يسأله عن ممثل الشركة ، عاد ليقول انه سيتصل هاتفيا بالشركة المالكة للبناية، رد علية صوت نسائي بتثاقل .... المندوبة غادرت منذ عشر دقائق انتظروها،

قال السائق – هل ترغبان بشرب شيء

طوال الطريق الى لاهاي لم يبادلنا أي حديث عدا (الجو جميل هذا النهار ...غدا ستمطر)....الأجمل انه لم يدخن ، جاءت المندوبة تحمل ملفا بلاستيكيا فيه بضع أوراق باللغة الهولندية

ستستلمان الشقة المخصصة لكما باسم عائلة النجار-

تقدمتنا الى المصعد الصغير ، لم يكن أحد في الممرات ولم نشاهد اي من السكان يتطلع نحونا من وراء الستائر ، صمت شامل عدا وقع اقدامنا على الممر المرصوف بالكاشي المزجج بلون تركوازي ،كان الممر نظيفا ولامعا، ربما تم رصفه حديثا ،

كانت الشقة مطلية باللون الابيض والابواب الخشبية بلون بيج لامع ،صاله واسعة فيها طقم كنبات بني والستائر بلون بني فاتح ،في الواجهة جهاز تلفاز صغير موضوع على طاولة خشبية مسدل عليها شرشفا أبيض ، غرفة النوم كانت تضم سريرا حديديا لشخصين عليه فراش تفوح منه رائحة خفيفة تنتشر في جو الغرفة ، على غطاء السرير بجعة سوداء على خلفية وردية ،كانت البجعة تحتل مساحة كبيرة من الغطاء ولم أجد من المنسب أن تكون بهذا الحجم كما إن الخلفية الوردية غير موفقة في نظري ، والى اليمين خزانة خشبية مدفونة في الحائط للحفاظ على مساحة الغرفة ،مطبخ مؤثث بشكل كاف ، غرفة صغيرة يمكن استخدامها مكتبا أو لاستقبال ضيف طارئ.

ارجوان توقع على الإيصال-

قرع جرس الباب ، كان رجلا يرتدي طقما كحلي طويل القامة نحيلها على وجهه ابتسامة ودودة ، رحّب بنا في بيتنا الجديد وقال انه من البلدية

لن اشغلكم فانتم متعبون ، أنتم في مدينة آمنه وفي دولة آمنة ايضا ،غدا أرجو - أن تحضرا في العاشرة صباحا الى البلدية على هذا العنوان المترو على مبعدة عدة أمتار ، هناك بعض التعليمات والاجراءات لتمارسا حياتكم المعتادة في دنهاخ .

كان أبو علي قد اعلمني إن الاسم المتداول للاهاي هو دنهاخ ، فلم اتفاجأ

غادرنا الرجل وموظفة شركة السكن ، كانت الثلاجة فارغة

قالت صفية انها بحاجة الى الشاي ، قلت لها وأنا أشعر بالجوع ،سأبحث عن بقالة قريبة .

هدوء شامل يرين على البناية وفي طريقي الى الشارع لم التق بأحد ،على الناصية كان صبي ربما هرب من مدرسته ،سألته عن بقالة باللغة الانكليزية نظر نحوي بحيرة ثم مط شفتيه ،قلت له سوبر ماركت ، ابتسم واشار بيده الى نهاية الشارع وان انحرف يمينا (ديرتخ ميترز) رددت في سري ثلاثون مترا،

حين عدت محملا بمواد تموينية كانت صفية تغفو، خصلات شعرها الأسود تغطي وجهها فيما كان تردد انفاسها منتظما ،لم تتغطى بالشرشف وهي تتقرفص في نومتها العميقة ، ولكن غلالة من السحر كانت ترف فوقها على نحو آسر ، كائن بالغ الجمال والعذوبة ، شعرت إنها قريبة جدا مني ،

في اليوم التالي أخذنا الترام الى مبنى البلدية ،كانت غرفة السيد جونس فان دايك في آخر ممر تنعكس الاضاءة على أرضيتها اللامعة وتبدو جدرانها صقيله بلونها الرصاصي الفاتح،

حين طرقنا الباب طلب شخص ما أن ندخل ، كان في الغرفة ثلاثة موظفين، امرأتان والسيد جونس ،حين صافحنا وهو يبتسم انتشرت رائحة عطر اولد سبايس ، كنت مولعا به أيام الدراسة الجامعية ميزته بسهولة .

كان يتحدث بإنكليزية سلسة

عليكما ان تفتحا حسابا في أحد البنوك في المنطقة يمكن أن يكون مشتركا أو - منفردا وترسلاه بالبريد الالكتروني لي لتحويل مبلغ المساعدة الشهرية كما عليكما ان تراجعا المدرسة لتنظيم التحاقكما بدورة اللغة الهولندية ، أود أن أشير الى إن الاحاطة باللغة ستساعدكما على إنجاز أعمالكما والتعرف على المجتمع الهولندي ولكن أهم من كل ذلك إنكما لن تحصلا على الجنسية الهولندية دون معرفة لغتها

لحظت إن صفية هزتها مشاعر فرح بدت في إشراقة على وجهها ،شعرت اننا يمكن أن نصبح جزء من هذا المجتمع.

كانت المدرسة على بعد نصف مشيا ولهذا وجدنا انه لابد من شراء دراجتين مستعملتين ،قالت زميلتنا في الصف وهي من الأحواز في إيران إنها تستطيع مساعدتنا ،و إن علينا أن نحرص على شراء قفل يصعب كسره

سرقة الدراجات بركة-

قالت ذلك ضاحكة

كانت سميرة تتكلم العربية ولكن بلهجة اقرب الى ابناء الخليج العربي مع تغيير بعض مخارج الحروف أو قلبها ، تمشي باسترخاء ، داخل الصف وحين تخلع الجاكيت تفتح قميصها لتترك لنهديها حرية أكبر في الحركة والتعرض للهواء ،ورغم إنها جديدة في المدرسة الا إن لغتها الهولندية كانت الأفضل بين طلاب صفنا العشرين ،تعلمت اللغة في المخيم الذي قضت فية حوالي السنتين وكانت تعمل في المطبخ ،بسبب حرية نهديها تشاجرت مع زوجها فانفصلا، ذهب هو ليسكن في الجنوب وجاءت هي الى لاهاي ،

كنت أستعمل الدراجة في كركوك حين أذهب للمدرسة ، والعودة اليها سهلة تحتاج ربما الى مران ساعة واحدة ، أما صفية فهي لم تركب الدراجة يوما، كان ركوب الدراجة امرا معيبا للفتاة ،وأقل ما يحمله الشباب من انطباع عن راكبة الدراجة إنها مستهترة.

بعد ثلاثة ايام من التدريب المسائي في منطقة زراعية قريبة ، قمنا بأول (رحلة) الى المدرسة وحين ركنا الدراجتين في الموقف المخصص

قالت صفية-اشعر بالحرج فقد كان الجميع يتطلع نحوي

قلت مداعبا-كانت الفتيات ينظرن الي بإعجاب فانا سائق ماهر ،ولا اعتقد ان أحدا كان يتطلع نحوك

ضربتني على كتفي

اللغة الهولندية صعبة ، ولكن كنا حريصين أن نتعلمها ولهذا اشترينا برنامجا مسجلا وبدأنا نتعاون في الحديث ،وكان مقترح صفية ان نتحدث بالهولندية في البيت قد ساعدنا كثيرا فقد كنا نتعرف على أسماء الحاجيات المنزلية ونتابع بعض المسلسلات على التلفاز

قالت المعلمة مركريتا الطويلة –الثنائي العراقي من أفضل طلابي

كانت مركريتا هي من اعلمتنا إن عائلتها كانوا يلقبوها بالطويلة وهي صبية فقد كانت اطول العائلة الذين هم طوال القامة كما هو الحال مع الهولنديين بشكل عام ، ولم تكن تكتفي بتعليمنا اللغة ،كانت تتطرق الى العادات الاجتماعية وقواعد السلوك ....حين تتحدث مع احد انظر في عينيه ...حين تصادف اثنين يتحدثان وانت تمر من جانبهم ...لا تسلم عليهم ...واذا سلمت ولم يرد عليك أحد لا تأخذ هذا الموقف أنه موجه ضدك .

كنا عشرين طالبا سبعة من العراق وخمسة من افغانستان واربعة من كوبا وأربعة من ايران ،كان الجميع ينصتون باهتمام وفي الفرصة نتجمع للحديث بمواضيع مختلفة ، كالعادة نشأت علاقات بين بعضهم البعض وكنت الكوبيات الاربع اسرع الجميع في توطيد تلك العلاقات ولكن في الجانب الاخر كان الجميع منسجمين وتسود بينهم علاقات ود متبادلة،

في النصف الثاني من السنة قدم الى الصف طالب من بلغراد ،كان ممتلئا يحمل وجهه تجهما ربما مزروع فيه منذ فترة المراهقة ،لم يتحدث مع أحد تحتل عيناه مساحة ملفتة للنظر في وجهه المكتنز، فيهما انطباعا بالترفع وشيء من العدوانية ، شعره مفروق من الوسط يلمع بسبب كمية(الجيل) التي وضعه فيه ،حتى اني فكرت ان ساعة في شمس بغداد ستجعل الدهن يسيح حتى الركبتين !

قالت سميرة –ربما كان في مخابرات الحكومة ، في المعارضة قد تجد شخصا محتالا ولكن لن تجد مترفعا أو عدوانيا بالمجان، ورجال الأمن كلهم ابناء عواهر

كانت تتحدث بمرارة من تعرض لموقف بالغ الصعوبة في مركز أمني ،ربما شيء ابعد من الضرب.

قالت صفية –رغم نشاز التوصيف فإن الملاحظ انها قالته بعفوية وكأنها تختزن كما من الكراهية لرجال الامن

قالت سميرة- أنا اعرفهم ، كان شقيق طليقي في المخابرات ، ورغم إنه ترك العمل وأعلن توبته مما اقترفه ،إلا أن خمس عشر سنة في الخدمة لن تجعل منه إنسانا سويا حتى لو رغب في ذلك .

كان اليوغسلافي يرد على فتاة كوبية كانت تحاول المجاملة بالقول إن عليه أن ينتظم بالدراسة – أنا أوربي ، لست مثلكم

كانت رائحة نبيذ رخيصة تنتشر من فمه وهو يتحدث فيما تطرف عيناه الغائمتان بلونهما الأزرق بنظره لامبالية أقرب الى الاستهانة بمن يتحدث معه,

لم ترد عليه وقد بدا إنها صدمت بالجواب ،جمعت كتبها وغادرت الصف، قالت صفية-ربما هو فعلا من رجال أمن بلغراد وهذا السلوك المتغطرس والهمجي من بقايا سلوكه السابق وتعامله مع المعتقلين

حسنا ..من الواضح إنك تعلمت بعمق الجوانب النفسية لتأثير العمل على السلوك-

نظرت نحوي بعتاب

-كنت أمزح ...صدقي انك فاجأتني -

كان جيراننا شاب في الثلاثينات وكان عضو شعبة وضابط في المخابرات - ويتصرف بالكثير من الوقاحة مع من يتصل به لسبب أو آخر. كان ضيق الافق اقرب الى البلادة الفكرية ولكنه يعرف كيف يوجه إهانة مباشرة تتسم بالفضاضة ربما اكتسب هذه المعرفة من تكرارها في دائرته مع المتهمين....

حين انقطع اليوغسلافي عن المدرسة ظل موضع تندر الطلاب ،فعندما يحاول أحدهم أن يسخر من آخر يقول له ...يعني أنت من يوغسلافيا.

حين نتجول في أمستردام اشعر ان المدينة تقف على اكثر من ركيزة ثقافية، التشكيليون العظام ،المفكرون ، الشعراء ، الروائيون ،وانها تمتلك إرثا إنسانيا بحيث كانت واحدة من المدن التي لجأ اليها المضطهدون فكريا في أوربا، القنوات المائية والجسور تمثل نتاجا لهذه الثقافة التي مثلت نجاح التحدي الذي انعكس على قدرة مهندسيها على قهر بحر الشمال ،

انهينا المستوى الثالث في اللغة وكنت وصفية قد اجتزنا الامتحان بدرجة كاملة وأصبح لدينا القدرة على التحدث في الشارع أو في الملتقيات التي عادة ما تحصل في الجمعيات ، كنا مصرين ان نتمكن من اللغة الهولندية ، فقد قررنا أن نواصل دراستنا ، قام السيد جونس فان دايك بمساعدتنا في إرسال شهاداتنا لمعادلتها

مرت ثلاثة اشهر قبل أن نستلم الرد الذي تضمن الاعتراف بالشهادتين بدرجة أدني، من أجل الحصول على البكالوريوس لا بد من البدء في الصف الثالث ، بمعنى فقدان سنتين دراسيتين،

وافقت الجامعة على ان نباشر الدوام في شهر سبتمبر بعد ان اجتزنا امتحانا باللغة الهولندية ،

العودة الى الدراسة بعثت فينا روحا جديدة ربما أكثر حيوية وشبابا ،تصرفاتنا عادت لمرحلة سابقة .... نحن طلاب جامعيين ، لم تواجهنا صعوبات في استيعاب مواد الدراسة بسبب إنا درسنا الأسس العامة التي تمثل أرضية للمواد المقررة وكذلك لأن كلينا مارس موضوع الدراسة سنوات طويلة ،كان ا سلوب الدراسة هو المختلف ،في النهاية أصبحنا نحمل شهادة جامعية .

اثناء فترة الدراسة انقطعنا عن التواصل مع الاخرين ،كنت اذاكر في الغرفة الصغيرة التي حولتها الى مكتب يزدحم بالكتب والمجلات القانونية وبملاحظات كنت أسجلها وأنا أحضر بعضا من جلسات المحاكم الهولندية، على الجدار الى

يساري كانت صورة كبيره باطار خشبي أسود عن لوحة (أصفر أحمر أزرق) لكاندنسكي ،كانت تترك انطباعا بقوة التجريد في الرسم حين يتلاعب بالالوان في تناغم هرموني ،أمامي كان شباكا على مساحه الجدار ، وعلى المنضدة جهاز كومبيوتر أستمع منه الى سوناتات شوبان الحالمة والتي كانت تسمح لي بالتفكير العميق في ربط التناقضات في تفاصيل الدعاوى التي ادرسها .

كان يستهويني محام من أصول هندية ،طريقة عرضه للموضوع وقدرته على استنباط توجهات غير مسبوقة من تفسيره المدهش لمواد القانون ، وقد تعلمت منه الكثير .

كانت صفية تذاكر في غرفة المعيشة ،حولت منضدة الطعام الى مكتب، استعمالها لمفردات اللغة في دراستها ،أقل مما يواجهني من شروحات المحامين وتوجيهات القضاة ودفوع المتهمين وعرض الشهود لمعطيات شهادتهم،

كانت مولعة بثلاث مغنين هم ناظم الغزالي وحسين نعمة ومائدة نزهت، وحين تبدأ الاستماع الى أي منهم تغلق باب الغرفة وتخفض درجة الصوت ،كانت اكثر مني انشدادا الى العراق ،وكان هذا الاختلاف بيننا نتجاوزه بهدوء فهو في الدرجة وهوليس قطيعة بين متناقضين ،كانت تضحك بصفاء حين أقول لها ذلك وترد- اعرف انك ستجد تخريجا قانونيا

التحقت صفية مكتب محاسبة قانوني في وسط لاهاي والتحقت بمكتب المحامي الهندي ،حين قابلته لأعرض عليه التمرين في مكتبه ،قال –حسنا ماذا تعرف عمليا عن الاجراءات القانونية في المحاكم الهولندية،

بعد مناقشات استمرت نصف ساعة قال-أنا سعيد بأن تعمل في مكتبي

كانت هناك فتاة من سيرينام من أصول هندية تكشف جزءا من بطنها وتضع في منتصف الجبهة نقطة بنية تتحدث بهدوء وبنبرة عميقة وكأنها تفترض إن من تحدثه بطيء في استيعاب كلامها ،كانت تعمل سكرتيرة للمحامي وموضع أسراره

،وهناك شاب من تشيلي هو الاخر تحت التمرين ولكنه يحضر ثلاثة أيام في الأسبوع ،كان صامتا لا يبادر بأي حديث ولكنه يجيب عما قد يوجه اليه،

كنت أحضر مع المحامي الى جلسات المحاكم التي لديه فيها دعاوى ، اهيئ ملف الدعوى واكتب ملاحظاتي ،كان يبدي إعجابه ببعضها ويصحح لي البعض الاخر.

تكونت لدي افكار عن الاجراءات القضائية واسلوب القضاة الهولنديين فقررت أن اكتب دراسة مقارنة بين ما يجري في العراق وما يجري في هولندا ،بعد اكثر من شهر في الكتابة والتدقيق قررت ان ابعثها الى المجلة القانونية (الحرية والقانون) وهي مجلة يسارية في توجهاتها العامة. بعد اسوعين وجدت المقال منشورا مع ملاحظة من هيئة التحرير بان أحاول الاتصال بهم ،

حين دخلت إدارة المجلة ،كان الوقت مساء ،وراء مكتب عريض إمراة على مشارف الاربعين لم تكن تضع اية مساحيق للمكياج ولهذا بدا وجهها باهتا ، في فمها سيكارة مما يصنعه المدخنون الهولنديون على المنضدة مجموعات من أعداد المجلة السابقة وكراسات وكتب في القانون ،على الجدار خلفها قصاصات عليها ملاحظات متنوعة مثبتة بدبابيس على لوح خشبي على امتداد الحائط ،على الجانبين خزانات زجاجية فيها كتب متنوعة وقد استرعى انتباهي وجود المجموعات الكاملة لدوستويفسكي وكافكا وهوارد فاست ،ثلاث دول ليس منها هولندا.

-ميشيلا-

-عمر النجار-

-تفضل بالجلوس-

سحبت نفسا عميق من سيكارتها

-عادة مضرة ولكنها متحكمة ،كان لابد ان أدخن خارج المكتب على أية حال - يسرني ان التقي بك..

-شكرا-

كنت أفكر بصفية فقد تركتها وحيدة ، اشعر بشيء من الحرج حين أخرج وحيدا ،قد يصل الى الشعور بالذنب اذا ما تأخرت لسبب أو آخر

-كان مقالك مدهشا فهو ينم عن ثقافة عالية ودقة محايدة في عرض المقارنات - هل تفكر بالاستمرار بالكتابة؟

إذا وجدت الفرصة ....نعم-

قالت بارتياح

-حسنا ...نحن بحاجة الى مشرف على باب من القضاء ،فإذا قررت الموافقة - على تولي هذه المهمة فستكون محررا ، ولكن انتبه نحن لا ندفع الكثير، سيكون التعويض الشهري مئة (خلدن)

يسرني أن أتعاون معكم ...ما يهمني هو العمل في المجلة أما الذي تسميه - تعويضا فهو مسألة ثانوية ...نعم سأتولى المهمة

انفرجت أساريرها الجادة وقامت تفتح باب براد عمودي لتخرج قنينة نبيذ، كانت الزجاجة مضببه ، سكبت في قدحين كانا على رف زجاجي الى جانبها ،

سنحتفل ببساطة بانضمامك الى مجلتنا-

شربت قليلا من النبيذ الاحمر ،كان لذيذا حاد المذاق، قالت انه نبيذ جزائري وهي تفضله حد الادمان وقد تعودت علية حين كانت مراسلة لاكثر من صحيفة هولندية في الجزائر ،كنت معجبة بالنضال الجزائري والقدرة على التضحية

انتظمت علاقتي بالمجلة وبميشيلا التي وجدت فيها انسانة صادقة وعمليه ومباشرة في طروحاتها ، بعض الناس لا يمكن أ ن تكتشفهم إلا اذا عاشرتهم أو تعاملت معهم .

حين استلمت كتابا من البلدية بإجراء مقابلة للحصول على الجنسية الهولندية،

قالت صفيه وهي تبدي ارتياحا عميقا – يمكنني القول ان متاعبنا قد انتهت فعلا، ويمكننا ان نسافر عبر العالم

كان اللقاء حسب ما توقعت ،تحدث موظف البلدية المكلف بتقييم سيطرتنا على اللغة الهولندية عن العمل وعن نشاطاتنا ، وحين أخبرته أني احرر في مجلة القانون والحرية طلب عددا من مكتبة البلدية ، انهى المقابلة وهو يهنئنا وأعتذر لأنه أخذ من وقتنا

قالت مشيلا -سنحتفل في بيتي ، أنت والمدام وكل العاملين في المجلة

مساء جائنا زميلنا البرتو ، قال –ميشيلا انسانة رائعة

كان بيتها في شارع فرعي ، حديقة أمامية سياجها من نبات الياس الكثيف بعرض حوالي المتر وبارتفاع 150 سنتمترا تمت العناية بقصه على مستوى واحد ، عند المدخل تحول النبات الى باب معقود فوقه قوسا ثبّت النبات فيه على أقواس من الشيش الرفيع ،على الجانبين أصص لورود بالوان زاهية وفي الوسط نافورة صغيرة كان رشاش الماء الصامت يندفع رذاذه الى مسافة قصيرة ، الباب الخشبي بظلفتين لا تخطئ العين تشخيص الملامح الشرقية في زخرفته ،المدخل العريض في جانبه الأيسر حمالة للتخفيف من الملابس وعلى الأيمن لوحة كبيرة لمجموعة خيول عربية ، القاعة الواسعة كانت معدة للاحتفال، الى الحائط منضدة عليها قناني مشروبات متنوعة والى جانبها منضدة ثانية عليها صحون كبيرة صفت فوقها شطائر بالجبنة واللحم والخضار ،

كانت ميشيلا ترتدي فستانا طويلا بأكمام عريضة مزدانا بقطع كرستال ملون، كانت امرأة أخرى بطلّة مشرقة ، شعرها المصبوغ حديثا يتدلى على كتفيها ، ولاول مرة أراها بمكياج انثوي متكامل

همست صفية –بدأت أغار ،كنت تصفها غير ما أراه

وأنا أراها غير ما كنت أراها ، ولكني أذهب ابعد قليلا ، نحن الان مواطنان - هولنديان، يمكن أن أنظر الى المستقبل...

الفصل الخامس عشر

عمل عمر منحه في المجلة التعرف على مجتمع البرجوازية الهولندية الذي تسود نشاطاته اليومية اهتمامات فكرية متنوعة وميل الى التميز في الحديث والسلوك مع رغبة في التجريب والتجديد ، بعض تلك المظاهر لم يكن يرغب في ممارستها ولكنه استفاد من معرفتها في التعامل مع هذا المجتمع ، تكررت دعوته الى حفلات الكوكتيل التي يحضرها ا الصحفيون أو الدعوات الخاصة التي تعتذر ميشيلا عن حضورها ،أ صبح بعد سنة وجها معروفا.

أما عمله في مكتب المحاماة فقد أمكنه من التعرف على الجانب الاخر من الحياة في هولندا ،عالم تحكمه علاقات غير منضبطة ، تخضع للصدفة والتخطيط على نحو غير مفهوم ،تقع الجريمة بدافع الحاجة أو الهواية ،مهربو ممنوعات ،نشالون محترفون ،محتالون ،سراق كل ما يخطر على البال وجد إن بعضهم يمتاز بروح لامبالية ، البعض أيضا يحمل رؤى وأحلاما أقرب الى الرومانسية في سلوكه ،كان يلحظ إن بعض الجاليات تعيش بكانتونات تمارس ذات الطقوس والثقافة كما في بلدانهم ، يزور تلك الشوارع عند الحاجة لإجراء مصالحة بين المتخاصمين .

كان يعتقد إن الحياة العمل والنشاط الانساني، رحلة بلا نهاية بحاجة الى الشجاعة في مواجهة تحدياتها والى المثابرة في الانتقال الى الخطوة التالية، والى الصبر حينما تشتد في عواصفها ،

في بالكون الشقة المشرف على الشارع كانا مساء يوم سبت يشربنان القهوة، كانت صفية تصّر انها افضل من يعد القهوة على الطريقة التركية ، وكانت أيضا مولعة بها ،

قال عمر- مقترحك بتنظيم سفرات جميل

شكرا .....ولكني أعتقد ان من الواجب التعرف اولا على هولندا ...ننظم سفرات - بعطل نهاية الاسبوع الى الجزر اولا فأنا لم أزر جزيرة في حياتي عدا انكلترا التي لم اشاهد شواطئها

-سنبحث على الانترنت وقد استعين بميشيلا-

-الانترنت نعم ...ميشيلا .. لا-

رفعت القهوة ودلفت الى المطبخ

بدء المطر رذاذا وخفت حركة السير في الشارع وأنتشر الليل ليغطي المدينة لكن المصابيح المنصوبة على امتداد الشارع قلصت مساحاته ليقف عند حدود الضوء ، لم ينسحب عمر الى الداخل ، استرخى بجلسته وشعر برغبه بكوب جديد من القهوة ،

قلوبنا سواقي مشتركة-

قال عمر حين وضعت صفية القهوة أمامه

قالت صفية -أعرف إنك تتشهى القهوة في ساعات المطر الاولى

جلست الى جانبه وهي تفكر إنه حتى في هولندا تنفض الأشجار أوراقها لفصل جديد من النمو ،وحين شعرت بالبرد أخذت بيد عمر بدعوة صامتة للدخول، انقطع السير في الشارع وأصبح السكون أكثر عمقا رغم صوت المطر الرتيب وهو يضرب اسفلت الطريق وتتجمع قطراته في مجار تسير جنب الرصيف بنعومة يدفعها نسيم لا يرتفع نحو الأشجار على جانبي الشارع

أشعلت صفية النور في الصالة وأبدلت ملابسها الخفيفة بكنزة صوفية وبنطال قطني سميك ،فتحت جهاز اللاب توب

حسنا هذه خارطة هولندا ....كم هي صغيرة ...مجموعة من الجزر بمن نبدأ؟-

استقرا على جزيرة تيسل ، المعلومات عنها مشجعة ، بحثا عن فندق مناسب تتوفر فيه وسائل الراحة ،قررا أن يذهبا مساء الجمعة ليعودا مساء الاحد،

حين نزلت صفية الى البحر كانت موجة كبيرة تتقدم ببطء الى الشاطئ ، كانت تشعر بالبرد حين لامس الماء ساقيها ثم ارتفع الى بطنها فحاولت أن تخرج، قال لهاعمر غطي رأسك في الماء وستشعرين بالدفء ،حين غاصت في العمق شعرت أن الماء أكثر دفئا ، كان مجموعة من الاطفال يعبّرون عن فرحتهم

بالصراخ المتواصل وهم يواجهون الموجة التي بدأت تصغر وهي تقترب من الشاطئ الرملي ،شعرت انها أقل منهم حماسة ولكنها فتحت ذراعيها لتصطدم الموجة بصدرها فتغمض عينيها وتضع كفيها على وجهها، على الشاطئ كانت مصطحبات للراحة وضعتها ادارة المقهى لزبائنها لقاء مبلغ بسيط ،أخذا قهوة امريكية فهم لا يقدمون القهوة التركية .كان الجو مشمسا وبدء يميل الى ان يكون باردا بعض الشيء وتراجع الاطفال وأصبح الشاطئ خال من مرتاديه ،دخلا الى داخل المقهى بانتظار ان يشاهدا المساء وهو يسحب ظلاله فوق البحر ،طلبا طعاما خفيفا ،تقدمت غيوم ثقيلة على نحو متسارع لم تترك لهما حتى فرصة التطلع الى تجمعها وبدأت تسكب ماء كانه سيل متماسك وليس مطرا ،وقفت صفية ترمق البحر الذي غاضة ذلك فاندفعت موجات كبيرة صاخبة تضرب الحاجز الحجري بقوة فيتطاير الرذاذ على مساحات واسعة من الشاطئ الفارغ ،قالت انها تتذكر ثورة بحر ايجة الذي نسيته ،حين عادا الى الفندق كانت موجة دفء تستقبلهما ورائحة القهوة تنتشر في الصالة الواسعة حيث تجمع النزلاء يشربون نبيذا محليا ويصخبون بأحاديث متقاطعة ،فيما كان بضعة اشخاص يرقصون على انغام موسيقى رقيقة أقرب للفالس جلسا في آخر الصالة ، قال عمر سأطلب كاسا من النبيذ ، قالت صفية ولي كأسا من الشاي الانكليزي ...أشعر بالبرد ، قال عمر حسنا لنرقص فما زال متسع في المكان لذلك ،قالت صفيه بدأت أشعر بالحر...لنجلس .

كانت الرحلة مشجعة قاما بعدها باستكشاف الشمال الهولندي شعرا بأنهما يجددان حياتهما ، السفر متعة قال عمر ،لا نكتشف المدن الجديدة وانما أنفسنا أيضا، لم يقل لها ان هذا هو أيضا رأي ميشيلا

كان شتاء هولندا مغايرا عنه في السنوات السابقة ،أقل في درجات الحرارة وأشد في سرعة الرياح وبين اهم الاخبار في الاذاعة المحلية التحذير من العواصف وتفادي الخروج الا عند الضرورة ، ويتناقل الموظفون في شركة المياه التي تعمل بها صفية أخبار سقوط الاشجار التي تقطع الريح أغصانها أولا ثم تقتلعا

بعنف وفي عمق الليل الصاخب يسمع صوت الشجرة الساقطة وهي تحطم عددا من السيارات المتوقفة ، قالت موظفة تحضر الى الدائرة على الدراجة الهوائية ،من المستحيل استخدام الدراجة في هذا الجو العاصف، زوجي راجع شركة التامين لتعويضه عن الاضرار في سيارتنا فكان الجواب (الشركة لا تعوض الاضرار الناتجة عن عومل الطبيعة) ، العاصفة وشركات التأمين ليسا على وفاق ، إنهما متنافرتان

مر الشتاء ولجأت البلدية تعويض الشوارع التي فقدت اشجارها بزراعة أشجار جديدة ،أكثر شبابا وبدت دائمة الخضرة لتخفيف عمليات جمع اوراق الاشجار النافضة ،

الصدفة هي التي تغير مسارك على نحو مفاجئ ، اما التغيير الذي يأتي به التخطيط فهو نهاية طبيعية لتغيير ما ،كانت ميشيلا تعاني من نوبة زكام حين وصلت المجلة دعوة عشاء في بيت أحد كبار المزارعين والذي يملك قطيعا من الأبقار جعله في المركز الاول بين مجهزي الحليب للمصانع القريبة كان الرجل باذخ الثراء ،قرأ عمر عن حفلاته في المزرعة شمال مدينة دنهاخ ، قالت ميشيلا :يمكنك ان تذهب برفقة المدام فالدعوة لشخصين ، سأعلمه هاتفيا وستجد ان الرجل بسيط وكريم ويمكن التعامل معه بسهولة ، أعتقد إنكما ستنعمان بليلة قد .تحتفظان بذكراها فترة طويلة

اعترضت صفية في البداية ولكنه اقنعها ، وفي صباح يوم الدعوة ذهبا لشراء فستان سهرة مناسب ،

الطريق الزراعي شارعا فرعيا تم تبليطه بالأسفلت حديثا ،على الجانبين قناتين مائيتين مترعتين بالماء حد الحافات مع الشارع ،عند الابقار المنتشرة مجموعة من طيور النورس تتحرك بحرية وبعضها يقف بمحاذات الابقار التي بدت غير مبالية بها أو بالسيارات التي كانت تدخل الى المزرعة ،عند بوابة من الحديد مرتفعة يقف أمامها رجل طويل القامة قال عمر إنه افضل لو امتهن لعبة كرة السلة ، قالت صفيه إنه فعلا عملاق ، يرتدي طقما أزرقا وقد زرر الجاكيت

القصير ،على رأسه قبعة كالتي يرتديها ضباط الجيش ، كان يدقق الدعوات قبل أن يسمح للسيارة بالعبور ، بيده جهاز لا سلكي يؤمن له الاتصال بمجموعة الحماية في الداخل ،يبتسم للبعض أو يلقي عليهم تحية متكلفة كجزء من واجبه

في المدخل كان صاحب الدعوة يستقبل الداخلين بابتسامة عريضة فكر عمر إنه فلاح رغم المظهر الأرستقراطي ،طقما أسود مما هو متعارف عليه في الحفلات الرسمية في بدايات القرن العشرين كما تظهره الافلام الامريكية ،خلا رأسه من الشعر وبدت صلعته لامعة تحت الأضواء ،كان مرحا ويحاول أن يتصرف بعفوية ومودة ليجعل ضيوفة أكثر حرية في تحركهم في الصالة الكبيرة حيث رصفت الى الحائط قناني مشروبات متنوعة مرفوعة على رف على امتداد الجدار الجنوبي للصالة ،فيما كانت مناضد دائرية تنتشر عليها صحون كرستال شفافة يتكسر فيها الضوء بالوان بهيجة ، امتلأت الصحون بأنواع من الجبنة الهولندية الفاخرة مقطعة ومغروس في كل منها قطعة خشبية معدة لهذا الغرض .

رحب بهما وهو يتطلع مستفهما ، قال عمر –المحرر القانوني في مجلة الحرية والقانون وهذه زوجتي ,

نعم ..نعم أعلمتني العزيزة ميشيلا-

انحنى بطريقة مسرحية يقبل يد صفية التي منعها استحياؤها ا الصامت من الضحك وا كتفت بابتسامة صغيرة ،

قال -تم ...تم سندرسن .

الجدا ر المواجه للمدخل يمتد لأكثر من عشرين مترا وينتهي الى اليمين بسلم مرمري باللون الرصاصي المعرق ،في الجانب الأيمن علقت ثلاثة رؤوس محنطة لحيوانات مفترسة وفي الوسط لوحة كبيرة لحصان جامح ، كانت اللوحة دقيقة في تفاصيلها كما إن الالوان كانت متناسقة تشي بحرفية الفنان الذي رسمها ، الى الجانب الأيسر عدد من بنادق الصيد المختلفة تحت كل منها قطعة نحاسية بتاريخ ومكان صناعتها،

وهما يتجولان لحظ عمر إن صفية بمزاج أفضل وعلى تقاطيع وجهها بدت ظلال تضفي عليها مسحة جمال ساحر ،همس في أذنها –أحبك ،

كانت تقف أمامه وقد انكشفت الظلال الداكنة التي غطت وجهها لتفسح المجال لأشعة الضوء ترسم ظلالا من نوع آخر وهي تتوزع على مساحة وجهها ،

كانت النسوة بملابس السهرة الطويلة عدا بضع فتيات كنّ بالبنطلون الجينز فوقه بلوزة إما كاشفة الصدر أو قصيرة لا تغطي السرة ،يحملن كؤوسا يرتشفن منها جرعات صغيرة بتؤدة ،النساء باللباس الرسمي كن متجمعات على حلقات يتحدثن بهمس ويطلقن ضحكات مرتفعة ،الرجال الذين كانوا في معظمهم فوق الخمسين ويمتازون برؤوس تلتمع تحت الضوء كانوا أكثر جدية فهم لا ينسون انهم رجال أعمال أو منتهزي فرص ، خبر من هذا ومعلومة من ذاك تشكل فارقا في مستقبل أعمالهم .

حين بدأت موسيقى الروك تعزفها فرقة من ثلاثة موسيقيين تم إخلاء وسط القاعة ، تقدمت أربع فتيات الى المساحة التي تم إخلائها ، تحلق حولهن مجموعة من الرجال وهم يتمايلون مع النغمات المتصاعدة بحماس من ضربات البيانو وأوتار الكيتار الكهربائي ومجموعة الطبول بانسجام هارموني متصاعد فيما كان عازف الكيتار يغني وهو يهتز بعنف ، كانت صفية تقف مع مجموعة متحلقة حول امرأة طويلة بشعر ترفعه فوق رأسها و تتحدث بكل عضلة في وجهها والمجموعة تندفع بموجة من الضحك الصاخب، لم يسأل عمر عن سبب الضحك وابتعد ليقف عند خمسة رجال كانوا يجلسون على مقاعد جلدية ويتحدثون بهدوء وجدية غير مبالين بالصخب على مقربة منهم،

توقف ينصت الى النقاش حول مصادر القانون الدولي ، توقفت الموسيقى وصمت المغني وتوزع الحضور ثانية حول المناضد التي رصفت عليها نوعيات مختلفة من الطعام الخفيف الذي يقدم عادة في حفلات الكوكتيل ،كان أحد رجال القانون رجلا في السبعين يجلس مصالبة ساقيه ،كان أشبه بممثلي هوليود في الخمسينات ، وجد عمر ان الرجل في أناقته وتسريحته أشبه بالممثل (كاري كرانت)، حين

ترك أحد الجلوس مقعده جلس عمر وهو يحيي المجموعة ،توجهوا اليه بنظرات استغراب! ، قال (كاري كرانت) –حسنا انه محام ناجح , ومحرر قانوني ممتاز

بدا الارتياح على المجموعة ، قال الرجل –أدريان سيمونز

-عمر النجار-

اتابع كتاباتك في مجلة الحرية والقانون والتي تلازمها صورك ، شواربك مميزة - ،حين سألت ميشيلا عنك قدمت شهادة مشجعة ...من حسن الصدف أن نتقابل اليوم

يشرفني التعرف الى شخصكم الكريم فأنا اسمع عنكم-

ارجو أن يكون ما سمعته ايجابيا-

ابتسم ، كانت ابتسامة مشجعة على مواصلة الحديث ،كان الجلوس يستمعون بشيء من الاهتمام

ايجابي جدا-

حمدا للرب-

وضع كأسه الكبير على الطاولة ومد يده يستخرج محفظته

هذه بطاقة الزيارة-

اعطاه عمر بطاقته

سأتصل بك خلال يومين فالمكان لا يلائم ما أرغب بالحديث عنه معك-

سأكون في غاية السرور إن اتصلت بي-

وقفت صفيه بالقرب من عمر

زوجتي صفية-

حياها الجميع بانحناءة ، استأذن عمر

-ربما هناك ضربة حظ ....ولكن ماذا كان يدور لتضحكي على نحو متحمس - حتى أني توقعت أن يطفر الدمع عينيك

- نكات نسائية غير مسموح أن يسمعها الرجال ....عيب -

الفصل السادس عشر

كان يقول لصفية إنه يثق بأحلامه فهي التي تكشف له عن إمكانات قوته الداخلية ، ولهذا فهو يعمل من أجل تحقيقها ، لم تكن تناقشه فقد كان ما يحققه يعزز ثقتها بما يطرحه

قالت –هل سيتصل بك(كاري كرانت)

كانا يتناولان الشاي أمام جهاز التلفاز الذي يعرض فيلما قديما لإسماعيل ياسين

أكيد ، المحامون نادرا ما يخلفون مواعيدهم-

ولكن المحاسبين ينفذوها في الدقيقة-

السيد أدريان لديه اكبر مكتب محاماة في أمستردام-

هل ستترك عملك لتلتحق به ؟-

كل شيء له حساباته وحين أقف على ما يفكر به يمكن ان أتخذ القرار المناسب - وما في ذهني إن شيئا كبيرا ينتظرني ، شيئا ربما يكون عنوان المستقبل الذي نريد ،وحتى يتحقق سأظل أحلم به

توقف البث في القناة التلفزيوني وأعلن هاتفه النقال إن شخصا ما يطلبه ، ردت صفيه ، على الجانب الاخر كان صوت فتاة نشطا وقويا وبمخارج الفاظ واضحة ،كأنه لمذيعة الاخبار في القناة الثانية ،نحن مكتب المحامي سيمونز هل السيد عمر موجود

نعم-

التفتت ا لى عمر –مكالمة لك من كاري كرانت

كلمّه المحامي ادريان سيمونز، سأله ان كان لديه وقت ليلتقيا مساء الغد في فندق (ديس اند يس) ولم ينس ان يشير له بأنه أحد المساهمين في ملكية الفندق

هل يناسبك الساعة السابعة-

نعم ، سأكون هناك-

- لا تنسى ان تؤكد للبواب على إنك ضيفي لتدخل بسيارتك الى الساحة الداخلية، فإدارة الفندق لديها إجراءات حماية

حين أغلق الهاتف كان يشعر إنه عبر المانش سباحة في ليلة عاصفة، شعر بارتياح عميق فهو يدرك الان إنه ليس واهما في أن يثق بأحلامه

قالت صفيه- عرفت الان ان المحامين أيضا مواعيدهم مضبوطة

طلب عامل الخدمات ان يسلمه مفتاح السيارة ليركنها ،رحب به موظف الاستقبال بابتسامة عريضة ،كانت صالة الاستقبال الواسعة والمؤثثة على طريقة القصور التاريخية تزدان بثريات كبيرة ،الرفاهية جزء من خدمات الفندق ،بضعة أشخاص يتنقلون بهدوء مبالغ فيه ،الجالسون على الأرائك مسترخين يشربون الشاي من أباريق مرفوعة على سما ورات ذهبية ،قاده الموظف عبر ممر على جدرانه لوحات تبدو وكأنها حقيقية لدقة الرسوم وتمازج الالوان المدهش ،نقر على باب غرفة بمقابض نحاسية كبيرة ،فتح الباب ، كان ادريان يقف الى الشباك يتطلع خارجا ، التفت بتؤدة وتقدم ليرحب به ،كان يقلد كاري كرانت في مشيته الموزونة وابتسامته الفاتنة ،دعاه للجلوس وطلب من الموظف ان يتصل بخدمة الغرف ليطلب القهوة وصحن فاكهة استوائية.

-لن نحتاج الى مقدمات فكلانا يحترف مهنة الاقناع ،-

كان يتكلم بهدوء وعلى نحو يعكس ثقة لا حدود لها بنفسه ، فكر عمر إن دراسة أي إنسان أمامك يحتاج الى جهد وتركيز مهما كان يبدو إنه واضحا فقد يكون ذلك ظاهريا

- أجزم إنك قد بحثت عن مكتب المحاماة الذي أديره ، بالطبع هذا إجراء عادي جدا ، فأنا من جانبي أجريت عملية جمع المعلومات اللازمة **عنك**، أين تعمل، من

أين جئت ،ما هي طبيعة عقدك مع المكتب الذي تعمل فيه، عموما أنا أرغب أن تعمل معي ، أفكر بفتح فرع لمكتبي في مدينة ارنهم وأحتاج الى محام يتمتع بمواصفات خاصة ليتولى إدارته ،نحن نعمل استشاريين ومنظمي عقود للشركات والمشاريع و نقيم دورات تدريبية ونتولى متابعة قضايا موكلينا في المحاكم المختلفة ، ربما تسأل عن الاجر ،أقول فقط انه سيكون ضعف ما تحصل عليه حاليا ،كما سنوفر لك سكنا وسيارة خاصة تختارها بنفسك ،يمكنك أن تدرس الموضوع وترد لاحقا

شعر عمر إنه بذل مجهودا كبيرا في متابعة أدريان ،وخطرت له فكرة ...هل كان كاري كرانت يتصرف على هذا النحو ،سيقوم باستئجار بعض افلامه ليراجعها

أشكرك ثقتك وأعدك إني سأدرس ما عرضته بجدية-

جميل ...هل أطلب لك مشروبا ؟...هل تشرب الكحول أحينا ؟-

فاجئه السؤال

أحيانا وعلى الخفيف-

ابتسم أدريان وبدا ان الجواب أعجبه

شعر عمر إنه محرج في سيره حين رافقه أدريان حتى باب الخروج فقد كانت خطوات مضيفه المتزنة والمحسوبة تسبب له نوعا من الإرباك ،وقف موظف الاستقبال وزميلته حين مرا بجنبهما فيما كان الجالسون الذين يحتسون الشاي يرمقوه بنظرة فضولية تحمل استفهاما صامتا عمن يكون ليرافقه السيد سيمونز الى الباب .

قالت صفيه -وماذا عن عملي ؟

سيكون هذا واحدة من نقاط الدراسة مع السيد سيمونز-

ابتسمت صفيه –لقد اصبح كاري كرانت رب عملك

لماذا ؟-

الم تلحظ انك بدأت باستعمال اسمه العائلي-

كانت الساعة قد بدأت تزحف نحو الثامنة شعرت صفيه بأن المساء سيكون ثقيلا إذا ظلا في الشقة ،اقترحت أن يذهبا الى ا لمطعم في محطة قطار لاهاي،ةكان المطعم في الطابق الثاني، في الطريق كانت الشقق على الشارع معتمة تماما فالاقتصاد في استعمال الكهرباء واحدة من صفات الهولنديين، تذكرت إن البيوت في بغداد تتوهج بأضواء المصابيح الكهربائية من المدخل الى كل الغرف تقريبا حتى دون وجود حاجة لها ،الإسراف بسبب عدم الرقابة على الاستهلاك والرغبة في التباهي ،

قال عمر –أعتقد اني سأرد غدا

كان يتحدث بصوت خافت وهما ينتظران الطعام الذي طلباه ،ردت صفيه بأنها تجدها فرصة لتحريك مجرى حياتهما ولكن لا بد من حسم موضوع عملها، كان المطعم ملتقى رجال الأعمال وبعض الميسورين فأسعاره مرتفعة وما يقدمه من أصناف الطعام متميزة والمطبخ يقوده طباخ ايطالي ،الحديث عموما هامس وقليلا ما تسمع صوت الملاحق والشوك ، رائحة النبيذ الفرنسي الخفيفة والإضاءة المنخفضة والوان الاثاث الخشبي البني واللامع تضفي جوا رومانسيا رغم الاحاديث العملية والجادة ،

حين اتصل عمر بمكتب سيمونز ردت السكرتيرة ذات الصوت الرخيم والعميق مرحبة به على نحو يتصف بالتودد ،خمن عمر انها تعرفه الان ،

لحظة سيد عمر-

كان على الخط ادريان –أهلا عزيزي عمر

اعتقد ان علينا ان نبحث في التفاصيل-

تحت أمرك ،هل يمكن ان تشرفنا بحضورك ...بالمناسبة ستكون صورة العقد - جاهزة لمراجعتها ...نحن محامون وكل ما يتعلق بالتعامل يكون وفق القانون ومن الوضوح بحيث لا نحتاج الى مواجهة اشكاليات التفسير

اتفهم ذلك ...هل يلائمك غدا-

نعم ...الساعة الحادية عشر أكون جاهزا-

قالت صفية-ارجو ان تطلعني على التفاصيل فالمحاسبون ينفعون في مثل هذه العقود...وخذ حذرك فكاري كرانت ليس سهلا كما في الظاهر.

كانا عند البوابة الرئيسة للبناية ،توجهت الى سيارتها وودعته وهي تطبع قبلة سريعة على خده ، شعر بأنفاسها الدافئة تمنحه إشراقة جعلته أكثر حيوية وكأن تباشير الفجر في صباح ربيعي في بغداد يلوح له ، حين أدار مفتاح السيارة فتح الراديو على اذاعة هولندا العربية ،كانت فيروز تغني (حبيتك)

قال لمدير عام المكتب –سيد إمباني قررت أن أترك العمل معكم

... نظر اليه ناكوت إمباني فيما لاحت على وجهه ابتسامة محايد-اجلس أولا

نادى على السكرتيرة لتأتيهما بالقهوة

عرفت ذلك منذ اسبوع ، اتصل بي السيد سندرسنسيمونز يستأذن في ان تعمل - معهم، بالطبع وافقت فمكتب سيمونز يتحضر لنقلة نوعية كبيرة ويبدو انه قد حدد مكانك معهم ،مبروك اولا وأعانك لله ثانيا،

لم يرد كان محرجا ،نهض وهو يغطي المكان بنظرة شاملة وكأنه يود أن يحتفظ بصورته بكل ملامحه ذات الطابع الهندي من الأثاث الى اللوحات المعلقة وبعض الحكم المخطوطة باليد بالبنط الاسود العريض، وهو خارجا قال امباني يمكنه أن يحضر غدا بأي وقت لاستلام مستحقاته لأن المحاسبة لم تحضر اليوم .

كان مكتب سيمونز قد رتب كل شيء، وشعر عمر إن ما يحصل حلم جميل، وظلت صفيه مندهشة مما يجري ،قدّم لهم المكتب صورة عن تأثيث الشقة ذات الاربع غرف، في شارع تمتد اشجار الملجونين على جانبي الشارع ،قام المكتب بتكليف شركة اكيا في ارنهم بتأثيث الشقة وفرشها ، أرسلوا لي صور مجموعة من اللوحات لاختيار ما أفضله ،كما تم تخصيص سيارة لتنقلاتي ،

ذهبنا الى الى ارنهم صباح السبت ،كانت المدينة التي تقع على نهر الراين تحتفل بيوم التحرير من الاحتلال النازي لأراضيها ،وفي الشوارع كانت عربات ملونة تعزف موسيقى وتوزع الحلويات مجموعة من الصبايا على الأطفال، قادنا جهاز(التم تم) الى باب البناية ، وهو يفتح الباب كانت امرأة كأنها أحد محترفي المصارعة الحرة تنظر اليهما بعدوانية ،فهم عمر انهما طارئتان،قال نحن السكان الجدد للشقة 12 ، هزت رأسها دون ان تتكلم

كانت الشقة غاية في التنظيم والتناسق ، طليت جدرانها بلون بيج فاتح، طاولة الطعام حولها ستة كراس مقاعدها من الجلد البني ومساندها مرتفعة ،

قالت صفية -لوكنا نحن من أثثها لأستغرق الأمر شهرا

كانا يسترخيان أمام الشباك يتأملان الأشجار التي ما زالت زهورها الهرمية البيضاء تنشر رائحة دافئة ،دق جرس الباب ، قامت صفية لتفتح الباب وهي تعرب عن استغرابها ،كانت أمرأه في الاربعينات ترتدي تنورة سوداء فوق الركبتين وبلوزة حمراء تكشف عن صدر ناهد، شعرها الاسود ينسدل على كتفيها فيما غّرتها تغطي الجبهة ،عيناها تشعان بنظرة ودودة ، من الواضح انها تخلصت من مكياجها خمّنت صفية ذلك من بقايا أحمر الشفاه بحمرة باهتة وخلو عينيها من أية مساحيق ، في قدميها صندلا جلديا ،قالت بصوت خافت يحمل نبرة استحياء إنها أسفة لإزعاجهما ولكنها وجدت إن من الواجب أن تسألهما إن كانا بحاجة الى المساعدة فهي في الشقة المجاورة وما شجعها على السؤال أنها عراقية ومن بغداد وقد علمت من موظفة شركة السكن إنهما ايضا عراقيان ،شكرتها صفيه ودعتها الى الدخول ، وقف عمر ،قالت اسمي سهى وأنا أعمل في التدريس

وزوجي ضابط في القوة البحرية ،كانت صفية تعتقد إن مثل هذه العادات قد انتهت ، كانت في الخامسة عشر من عمرها حين نقل والدها من دائرة ضريبة الدخل في الرصافة الى الكرخ ،ولأن والدها كان يعاني كثيرا حين يذهب الى عمله بسبب الزحام على الجسر الحديدي في الصرافية، قرر أبي أن يستأجر بيتا في حي العدل ، وهم يوظبون الأثاث طرق الباب ، كانت امرأة في الستينات تضع عباءة سوداء فوق رأسها الذي لفته بعصابة تتدلى منها خيوط مضفورة ،تحمل صينية عليها ابريقا للشاي وثلاث ارغفة خبز تنور ما تزال ساخنة ، قالت انها في البيت الملاصق ،ابنها مشاور قانوني في شرطة الكرخ تتمنى له اقامة سعيدة وتعرف إننا بحاجة الى الشاي،بعد ثلاث سنوات انتقلنا الى البيت الذي اشتراه أبي في مدينة (الشعلة) ولكن أحدا لم يطرق بابنا

في اليوم التالي ذهبت صفية الى شركة تجهيز المياه لتقدم امر نقلها الى أرنهم وقام عمر بمراجعة مكتب الاستئجار الذي كلفه ا دريان بالاتفاق معهم على استئجار المكتب، نسيا تماما زائرة المساء...رتب مكتب الاستئجار لعمر زيارة عددا من المواقع المقترحة ...كانت الاشجار المعمرة في المدينة قد تقرر قلعها وزراعة اشجار بديلة ،فرّت الطيور وهي تتطلع الى اعشاشها بأسف فيما تنتشر في شوارع المدينة رائحة طرية لجذوع الاشجار التي راحت سيارة تحمل معدات لتقطيع الجذوع وتخليصها من الأغصان ورصفها فوق شاحنة تقف وراءها ،بدت الشوارع في المدينة أكثر شبابا بعد إن اختفت الظلال الكثيفة التي كانت تخيم عليها ، وأصبحت أكثر هدوء لفرار الغربان الصغيرة التي كانت تصدر أصواتا غير متناغمة وهي تطارد بعضها البعض .

انتهى تأثيث المكتب وتم تحديد مهامة وفق رسالة مكتب سيمونز لتشمل (الاستشارات القانونية ، التقاضي أمام المحاكم ، التوكيل عن الشركات وعلى وجه الخصوص شركات التأمن وشركات النقل البحري ،تأسيس الشركات

بأنواعها) كانت مهام المكتب كبيرة وتحتاج الى استقطاب محامين محترفين ، البداية القوية نتائجها مباشرة،

يوم الافتتاح حرص أدريان على أن يحشد كل معارفه ويدعو المسؤولين في أرنهم ليعطي مكتبنا دفعة قوية في سوق الخدمات القانونية ،بعد انصراف المدعوين قال أدريان إن عليّ إعداد دراسة مفصلة عن فتح فرع في دبي، فاجأني الطلب قلت دراسة من هذا القبيل بحاجة أن أكون في دبي أو أن نكلف شركة مختصة بإعداد دراسة جدوى اقتصادية ، ضحك قائلا ،نحن من نعد الدراسات ، في دبي الان العديد من الشركات الهولندية وهم بحاجة الى خدمات قانونية ووجودنا هناك يمنحهم ثقة أكبر ، رتب امورك واعلمني لأهيئ لك زيارة ناجحة ،

ما يجري كان يدهشني فحياتي التي كانت تمضي بهدوء كمجرى ماء في حقل لا يعكر جريانه شيئ ،ربما تنهار كتلة طين من حافات المجرى ولكنها سرعان ما تذوب في الماء ولا تخلف الا موجات صغيرة تتلاشى بعد لحظات، أما الان فانا أسبح في بحر أستطيع أن أستطلع سطحه الرقراق وأمواجه المتلاحقة الى ما لانهاية ، ولكني لا أستطيع أن أجزم أني سأظل فوق الماء، البحر دائم التغير وقد ينفجر في أية لحظة ،قالت صفيه ،توكل على الله ..قلت هذا يعني انك مثلي خائفة.

بعد ثلاثة أيام في دبي ويومين في أبي ظبي ولقاءات مكثفة مع مكاتب قانونية ومحامين وبعد زيارة بعض المحاكم القضائية للاطلاع على اجراءات التقاضي ،تكونت لدي صورة واضحة عن المهمة التي جئت من أجلها ،كان ادريان قد كلّم مدير احدى الشركات الهولندية العاملة في ردم البحر وإنشاء جزر صناعية ، استقبلني الرجل بحفاوة وهيأ لي لقاء مع الدائرة القانونية في الشركة ، دبي مدينة مدهشة فرغم الحرارة المرتفعة والرطوبة العالية فهي مدينة لا تتوقف فيها الأنشطة المختلفة ،السماء هنا مغايرة فهي تحجب النجوم وتبدو كأنها سقفا صناعيا من الرمل الكابي ويبدو شاطئ البحر في نهارات الصيف مهجورا والشمس لاذعة وإذا كنت مضطرا للسير فإنك ستشعر بطعم الملح والرطوبة في

فمك ،مدينة عالمية بما تحمله من مواصفات تعدد قوميات المقيمين وتنوع أعمالهم وحرية التبادل التجاري ، قال أدريان ستشاهد مدينة كوزموبولتية نموذجية ، إنها مدينة الاستهلاك الزائد ،وهي أيضا المدينة لا تتركك تحتفظ بشيء، فهي ضد الادخار ،انتبه لنفسك.

كان أدريان رجلا عمليا يتخذ قراراته بسرعة ولكن بدقة متناهية ،تم افتتاح المكتب في دبي وبقيت ثلاثة أسابيع لوضع ضوابط العمل ، فرعنا في أرنهم أمكنه الحصول على توكيلات قانونية وعقد دورات استشارية ناجحة كما أصبح من الممكن القول إننا نحقق وجودا واضحا في محاكم أرنهم ومحيطها ،

كانت صفيه مرتبكة وهي تسكب القهوة في فنجانها ،كان يوم سبت حيث لا نذهب للعمل ونغلق هواتفنا ،الوحيد الذي نستقبل مكالمته هو أدريان وعبر هاتف خاص ،كانت مهمومة وفكرت انها ربما لم تاخذ راحتها ليلة امس ،

قالت –لقد حققنا نجاحات كبيرة ولكنا نسينا إننا عائلة

كيف نحن عائلة مثالية-

نعم ....ولكنا جزء من عائلة-

كيف-

العائلة تعني زوجين وأطفال ...بمعنى امتداد للوجود-

تعلمين انا لا نستخدم أيا من الموانع-

صحيح ولهذا علينا أن نراجع الطبيب-

بعد مراجعة طبيب العائلة المختص , حولها الى طبيبة اختصاص نسائية وتوليد في المستشفى المركزي في ارنهم ،أجرت لها الدكتورة فحصا شاملا ثم اخبرتها بأن يحضر زوجها وهي لا تعاني من اية أعراض قد تكون سببا في منع الحمل ، شعرت بشيء من الارتياح فليس من السهل على أية امرأة أن تعرف انها غير

مؤهلة لتكون اما ،ولكن ماذا عن عمر ...قال لها سيذهب لإجراء الفحص ...قالت يوم الاثنين الساعة العاشرة والنصف ...قالت الدكتورة انها لا تجد فيه سببا لعدم الإنجاب والموضوع يحتاج الى الصبر ونسيانه تماما، لم يشغلهما الأمر ....ولكنه ظل عالقا بأحلام صفية

في البدء كانت تستيقظ مذعورة ،كوابيس تضغط عليها ،نساء متشحات بعباءات سوداء يتجمعن حولها معولات لأنها ستكون وحيدة بعد عمر ...تتحسسه وهو نائم وتشرب كأسا من الماء ،قالت موظفة معها في قسم الحسابات إنها محسودة ،كانت سورية من اللاذقية ،نصحتها بأن تذهب الى شيخ الجامع ...من يحسدها وهي لا تعرف أحدا ولا تختلط بأحد عدا جارتها سهى التي كانت تلتقي بها في المدخل ولم يتزاورا إلا لماما ....وهي أصلا لا تميل الى رجال الدين ،قال عمر يمكن أن نذهب الى لندن فقد اعطوني عنوان طبيب عراقي مختص ....لم يختلف جواب الطبيب العراقي عن الدكتورة الهولندية

لم تنقطع كوابيس صفية ولكنها تحولت الى عنف حاد وأحيانا ترى نزيزا من الدم يتفق من قبر أخيها ، سبب لها ذلك شعورا ملازما بالخوف والقلق ،قالت ان علينا ان نزور الاهل في بغداد ...نحن لم نذهب منذ وصولنا الى هولندا الا الى دبي ربما سأتخلص من هذه الكوابيس وانا أتحدث مع أمي..

الفصل السابع عشر

منذ ان بدأت إجراءات السفر بدا على صفية انها أكثر استقرارا ، أصرّ أدريان على أن نسافر بدرجة رجال الأعمال وطلب من وكيل سفره أن يحجز لنا عبر المانيا إذ لا توجد رحلات مباشرة من هولندا الى بغداد .كانت صفيه تمر بحالة ذهنية يسودها هدوء مشوش ، كانت تتحرك بألية وتضع ملابسها في الحقيبة الجلدية الكبيرة دونما ترتيب مما اضطرني الى الطلب منها ان تخلد للراحة وأقوم بحزم الحقيبتين ، لم توافق أن نشتري هدايا لأمها أو خالتها وبناتها ،لم أناقشها وفكرت أن اشتري بعض العطور والحلويات وربما شالين حريريين من السوق الحرة، في الطائرة كانت تغمض عينيها وكإنها تستعجل الوقت أن يمر على نحو أسرع أو على نحو لا يدفعها الى الى التفكير به ، لم تكن صفيه التي عبرت بحر ايجه بعواصفه الرعناء ومخاطره التي كانت على مقربة نراها ونشعر بها ،كانت حينها قوية تواجه ما يحصل وهي تدرك حجمه، بدت هادئة ...أقرب الى أن تكون مستسلمة او إنها تعاني من شرود ذهني، ونحن على الطائرة طلبت عصير كيوي وحين قدمته المضيفة لها استغربت ،قالت إني أعرف إنها لا تستسيغ الكيوي فلماذا طلبته لها ،قلت لها لقد نسيت إ ني طلبته من المضيفة ، تناولت العصير ...كنت أتسائل عما اذا كانت الكوابيس التي كانت تعاودها في أرنهم قد استولت على تفكيرها ، شعرت بالقلق وقررت أن أكون حذرا في التعامل معها بانتظار أن نصل بغداد لأعرضها على طبيب مختص.

مطار بغداد الدولي لم يتغير عدا وجود صفوف طويلة من النساء الايرانيات (بالجادر) الاسود والرجال الذين يبدو عليهم الاجهاد والفقر ،طلب ضابط الجوازات الهويات المدنية العراقية ، كنت على علم بالإجراء الذي يقصد منه الإعفاء من المطالبة بتأشيرة الدخول ،الإجراءات متعبة ، أخذنا اولا سيارة الى ساحة عباس بن فرناس وبعدها سيارة الى البيت، كان السائقون في الساحة يتزاحمون على الركاب دون وجود أي تنظيم أ و ترتيب يضمن أن يكون هناك دور لكل سائق ، أحيانا يتشاجرون وهم يسحبون الحقائب ،كان السائق يستمع الى دعاء بنغمة رتيبة ، يمط القارئ الكلمات ويحاول أن يعطي ما يقوله مسحة من

الصدق للتأثير على المستمع ، رجوته أن يخفض الصوت لأنا نشعر بالتعب بعد ثمانية ساعات في الطائرة وساعتان في المطار,

قال -من اي بلد؟

من هولندا-

ديروا بالكم عليّ -

ماذا؟-

-يعني لعّبو إديكم أنا استاهل-

لقد اتفقنا على الأجرة

يعني قليلا من الإكرامية لن يؤثر عليكم -

لم أرد عليه ، كانت صفية تتطلع الى الشوارع المكتظة أرصفتها بالنفايات وفي نظراتها حزن عميق ،ضغطت على يدها , أرجوها عدم التعليق،

قالت –متى نصل ؟

قال السائق –خمسة عشر دقيقة إذا كنا محظوظين ،فقد يمر موكب أحد المسؤولين ونضطر للتأخر.

كان السائق ينزل الحقائب من صندوق السيارة حينما سمعت صوتا نسائيا

... خالة صفية وزوجها-

لم أسمع بقية الجملة وأطلت فتاة من الشباك الموارب في الطابق الثاني ،فتح الباب وكانت أم صفية تستعين بظلفة الباب الخشبي لتقف ، وجهها تلفه ظلال فرح ،لم تضع الشال على رأسها كعادتها ، بدا لمة بيضاء ،فتحت ذراعيها لتحتضن صفية وأجهشت ببكاء حاد ، بكت صفية أيضا ،تذكرت ما كانت تقوله أمي ،البكاء دواء ،ربما ستتجاوز صفية ما تعانيه ،البكاء قد يغسل همومها، تقدمت فتاتان تحملان

الحقائب ،قالت خالتها تفضلا ،البنات لم يذهبا للدوام اليوم وفضلا انتظاركما ،التصقت الأم بابنتها ونحن نجلس ،طلبت الخالة من ابنتها الصغرى أن تعد الشاي ،. قالت صفية ، قهوة رجاء

البيت على الشارع الخدمي وهو شارع مواز لشارع المرور السريع والذي يفصلهما حاجز من الأسلاك الشائكة بارتفاع مترين قام الأطفال بعمل فتحات فيه للتوصيل بينهما ،غرفة نوم واحدة في الطابق الأسفل ويضم الطابق أيضا صالة هي غرفة المعيشة وغرفة مؤثثه جيدا لاستقبال الضيوف ومطبخ مفتوح ومرافق صحية ، الطابق الأعلى ثلاث غرف نوم على شكل نصف دائري أمامها ساحة ومرافق .

قالت صفية وهي توشوشني – سأنام مع أمي وقد تم إعداد الغرفة المجاورة ،

أشارت الى الغرفة في الطابق الاول.

كنت أتفهم حاجتها لتكون بالقرب من إمها ،لم أعترض ،حين نهضتا كانت صفية تلقي برأسها على كتف أمها ،شعرت انها ترغب لو أن أمها حملتها كما كانت طفلة وألقتها على السرير ،تغطيها وتطلب منها أن تكون عاقلة ولا ترمي الغطاء كعادتها ،ونحن جلوس طيلة الأمسية لم تتحدث الأم كانت تطيل النظر بوجه صفية وتتحسس ملامحها أحيانا ،أرتني صفية صورة أبيها وهي تعود من غرفة النوم ،قالت هذا أبي ، كانت نبرة اعتزاز تطغي على صوتها ، قلت أنت تشبهيه ،قالت ياريت ،كان رجلا كبيرا بحبه لنا، صدقني كان أقرب الى الملائكة ،كان رجلا بلا خطيئة .

في الصباح اكتشفت أن البيت بحاجة الى عملية صيانة سريعة ،قلت لصفية علينا ان نساعدهم في صيانته قبل موسم الامطار ، كانت تتبدى في عينيها بهجة تطلق في وجهها فرحا يضفي عليها سحرا ضافيا ،شعرت بالرضا فهي تتعافى من كوابيسها وتعود ثانية الى طبيعتها ،قلت لها سأتصل بصديق كان لديه مكتب

هندسي في المنصور ليعاين البيت ويقوم بما يلزم ،قالت هذا سيفر علينا مراقبة العمال ومتابعة العمل

ابنتي خالتها كانتا لطيفتين وهما تعملان ، الكبيرة (سارة)تعمل في قناة فضائية محررة أخبار وهي بحكم عملها تقدم تحليلا مملا للوضع السياسي دون أن يسألها أحد ، الصغيرة (ابتسام)معيدة في كلية التربية الرياضية في ألعاب الساحة والميدان ، تمارس أول الصباح تمارين خفيفة ولا تتناول في إفطارها غير كوب شاي بالحليب وقطعة بسكويت مالحة ،خرجتا أول الصباح ..

قالت خالتها ماذا أعد لكما في الغداء ،.

قلت شكرا خالة ...نسقي مع صفية .

كانت بغداد تجتاحها شمس مصرّة أن تدخل كل مكان ، شمس حادة ، كانت فاقعة الصفرة شرسة ، تعرف إنها فارقت الصحراء ولكنها نسيت إنها تدخل بغداد ،ظلت تحمل لون الرمل الباهت ووحشة الربع الخالي ،شمس لم تكن فوق جبال حمرين ولم تعبر فوق حقول خضراء.

وقفت بانتظار تاكسي, تذكرت الشمس ساعة الغروب فوق بحر الشمال حين نجلس في مقهى على الشاطئ نرقب الشمس وهي تهبط بجلال فخم لتلامس البحر برقة ، كانت قرصا برتقاليا باذخ البهاء ،لون البحر الازرق وقرص الشمس البرتقالي يشكلان لوحة ساحرة ،في متحف فينيسا وقفنا طويلا عند لوحة سان ماركو الساحرة للفنان التشكيلي أوجين بودان ،مرّ بذهني قصيدة السياب حين يقول (والشمس أجمل في بلادي من سواها) حبه للعراق جعلة يتجاوز سحر الشمس والبحر في بلدان أخرى ,أو ربما كان يعني بلدان الخليج العربي.

لم أتعرف على المهندس عبد الباقي الراوي حين تخطيت عتبة المكتب ورأيت شيخا يتحرك ببطء وهو يوجه مهندسا كان يشرح له تصميما هندسيا ، كان يكبرني بحوالي خمس عشر سنه وكنا رغم ذلك أصدقاء بعد إن تعرفت عليه وهو يرفع دعوى ضد أحد المقاولين في بغداد وكنت وكيله ، وقد كسبنا الدعوة،

حين اخبرته بسبب زيارتي ضحك قائلا –لا نقوم بمثل هذه الأعمال ، نحن شركة كبيرة ، ولكني سأعتبره بيتي ،

ولكن لابد من تحديد الأجر فانتم -

تدفعون للعمال

لا بأس ، عشرة دولارات كافية ...اترك العنوان عند السكرتيرة وسيزوركم غدا - مهندس مختص وسيقوم باللازم

قالت صفية حين عدت –ماذا فعلت

كل خير سيأتي مهندس لمعاينة ما يلزم وسيقومون بما يتطلبه الامر-

وماذا عن الاجور ؟-

عشرة دولارات-

اعتقدت إني أمزح معها ، نظرت باستغراب ، كانت أكثر ثقة بنفسها ، ولم تعلق

! فعلا لم يقبل عبد الباقي بأقل من عشرة دولارات-

في المساء ونحن نجلس في الصالة بعد الشاء كان الحديث عن الأصدقاء القدامى والجدد ، قالت سارة الأصدقاء القدامى يظلون كالذهب لا يتغير بريقه،

قلت أود شراء بعض الكتب من شارع المتنبئ قالت ابتسام سأرافقكما .... ليس لدي حصص في الكلية غدا.لن أنسى يوم الإثنين 05-03-2007 حين خرجنا في التاسعة والنصف صباحا ،قلت لصفية وابنة خالتها أود أن انهي زيارتي لشارع المتنبئ بوقت مبكر لأني مرتبط بموعد في نقابة المحامين الساعة الواحدة ، لم تردا ،كانت ابتسام تقود سيارتها اليابانية الصغيرة، ركنتها في موقف للسيارات في جانب الكرخ ، كان ذلك بالقرب من مديرية التقاعد العامة، نزلنا الى دجلة، العبور بالزورق المزود بمحرك يوفر الكثير من الوقت فالعبور بالسيارة الى الجانب الثاني أمر غير مضمون في أغلب الأحيان، كانت رحلة قصيرة استغرقت

خمس عشر دقيقة ،مغادرة الزورق الى الشاطئ عملية محفوفة بالمخاطر، كنت أتابع انطباعات صفية وهي تتطلع الى مكتبات القرطاسية قبل أن ندخل شارع المتنبئ ،كان الشارع معرضا للكتب ، على أرصفة الشارع على الجانبين تتنشر الكتب في عملية استعراض تتيح للمتطلعين الى العناوين اختيار ما يرغبون به بيسر .

اقترحت ابتسام أن نشرب الشاي في مقهى الشابندر ، لم يكن هناك العديد من الرواد ،بضعة أشخاص يطالعون الصحف ،كان الشاي مطعّما الهيل ، كانت الساعة العاشرة والنصف ، تجمع عدد من الأشخاص حول رجل يقف على صندوق صغير يلقي قصيدة شعر شعبي ،ازدادت أعداد المتجمعين حول الشاعر ،كانوا يطلقون ضحكات بصوت مرتفع وهم يصفقون ويستعيدون الشاعر ، قالت صفية أرغب أن استمع لما يقوله ،هل نقوم . قالت ابتسام إنه شخصية معروفة في شارع المتنبئ وعادة يحضر يوم الجمعة ،قلت حسنا يمكنكما أن تتمتعا بالشعر الشعبي وأنتهز الفرصة لشراء بعض المصادر القانونية من مكتبة ليست بعيدة ،ألقيت نظرة على ساعتي ،كانت الساعة العاشرة وخمس وأربعون دقيقة،

قلت –حسنا أحتاج نصف ساعة والتقيكما هنا،

قالت صفية –اذا انتهى الشاعر نعود الى المقهى فالشاي لذيذ،

كنت قد اشتريت الكتب التي أبحث عنها ،قال العامل في المكتبة –كم الساعة أستاذ ؟،

الحادية عشر ودقيقتين، -

كنت أضع قدمي خارج باب المكتبة ،دوي هائل وعصف كإعصار مدمر وصوت المرأة التي كانت تنظف أمام المكتبة ...انها القيامة تمجد الرب ،هذا أخر ما كنت أحس به من حولي ،ضربة حادة على جبهتي من كتاب مندفع وهو يصدر حفيفا مخيفا ،إرتفع طائرا ثم ارتطم بحاوية نفايات ، حرارة مخيفة وضيق في تنفسي.... ،غياب عن الوعي ،ربما دقائق كنت فيها مرميا، نصفي على الرصيف والاخر

على الشارع ،حولي مئات الكتب ولكن كتب القانون التي أشتريتها لم تكن معي ،دم متجمد على جبهتي وصداع رهيب يشل رأسي وأصوات مختلطة ومتداخلة تصل ملتبسة ، لم يتدخل أحد لمساعدتي ، كان الدخان الاسود الثقيل يغطي الشارع بالكامل ،كان الشارع قد تداخل ببعضه كتب وأخشاب وبشر ، طابوق وبقايا كتل اسمنتية تنتشر لتكمل المشهد، أين صفية ؟ حين نهضت شعرت بدوار ويدي التي كانت تقبض على كيس كتب القانون ما زالت مشدودة أصابعها الى راحة الكف ،قال رجل يغطيه التراب ..سلامتك ، قلت له أين صفيه ؟نظر إليّ بأسف ومشى مع امتداد الشارع ،انكشف الشارع على الجانبين بعد إن أزاح العصف الرهيب واجهات المكتبات التي تكدست فيها الكتب ،أين صفية؟ ،مقهى الشابندر كأنه اطلال لم يتبقى منه غير جدران اصبحت شبابيكها فوهات يتصاعد منها الدخان ،التجمع الذي كان يستمع للشاعر تحول الى بقايا ملابس لم تحترق واحذية مختلطة ،كان رجال الإنقاذ قد رفعوا الهياكل المتفحمة ،فردة من حذاء صفية وفردتي حذاء إبتسام كانتا في كومة من المخلفات عند الرصيف ،أخذتها ، سألت رجل اطفاء –هل رأيت صاحبة هذا الحذاء؟

رد على بلهجة لا تخلو من التبرم –لا ....اذهب الى الطب العدلي

هل أذهب لأم صفية ...ماذا سأخبرها ... جلست على الرصيف ألملم نفسي ....ذاكرتي ...استرجع صورتهما مع الجمع الذي ينصت للشاعر

في الطب العدلي كان هناك جمع من رجال ونساء رغم القلق و التعب والخوف كان لديهم أملا ...ربما يجدون من فقدوهم ....للذكرى يزورون القبور، ثلاثة أيام بلياليها كنت ملازما الطب العدلي ،كنت خائفا أن أعود الى أم صفية ،عند البوابة كان رجل يبيع الشاي والبيض المسلوق ،قال- لماذا لا تذهب الى البيت وتأتي في الصباح ؟

قلت –المبيت في الشارع أقل وطأة من الذهاب للبيت

لم يرد ، قدم لي صحن البيض وكوب الشاي

كان الوقت ظهرا حين سمعت صوتا نسائيا ينادي ,كانت خالة صفية ،وجهها الممتقع والمشدود ينبئ بما تعانيه

ماذا حدث ...لماذا أنت هنا ....أين البنات؟-

كانت مرتبكة تستعجل المعرفة ، أ شعر إني تائه ، من أين أبدأ ؟

كانت القيامة-

ماذا ...ماذا تعني ، أين البنات ؟-

لا أدري-

كانت هي تدري ...استنتجه من ملازمتي الطب العدلي

كيف عرفتم إني هنا ؟-

أخبرنا جبر أبو الغاز أنه راك ، قال ذلك حين كان يبدل قنينة الغاز ،وسأل عما - ... إذا كان لدينا وفاة

كانت أم صفية على الكرسي وسط الصالة، لم تسأل ولم ترد على سلامي ،كان الصمت قاسيا بظلاله التي تغطي وجهها ، تجلس واضعة يديها في حجرها، بقايا الدمع في عينيها لم تكن متحجرة ،كانت تتلألأ في محجري العينين المتعبتين

في الصباح كنت أكثر تماسكا ...لقد رحلت صفية ....استأجرت سيارة الى إبراهيم الخليل ...ومن الجانب التركي استأجرت سيارة الى ديار بكر ...قضيت ليلة في فندق ليس من السهل الحديث عنه ، وصلت مساء ، أخذني السائق الى الفندق ، لم اخلع ملابسي ، فور تمددي على الفراش رحت في إغفاءة عميقة ، حين صحوت ذهبت الى مكتب الخطوط الجوية التركية لأقطع تذكرة الى أمستردام ،في الطائرة وعلى مقعد رجال الاعمال قلت للمضيفة ان لا توقظني ،

من المطار أخذت تاكسي الى أرنهم ،كنت أتصرف بالية وكأني مبرمج ،في الشقة بدأت معاناتي ....في كل ركن كانت صفية تنظر نحوي وهي تبتسم، كنت أشم

عطرها على الفراش، وأحس بلمستها وأ نا أضع رأسي على الوسادة، أشعر إنها معي وليس في ذاكرتي ،فحينما تترسب الأحداث والأشخاص في الذاكرة يمكن التعايش مع الحياة وممارسة لأنشطها ولكن حين تعيش معك بين الحلم والحقيقة فإنها تشدك اليها ،

يومين لم أخرج من الشقة ولم أرد على الهاتف .طرق الباب في صباح اليوم الثاني ولم أرد ، وفي الثانية عشر أعيد الطرق ...في الثالثة سمعت لغطا عند الباب وحديثا حول فتح الباب ومعرفة ما إذا كنت قد فارقت الحياة ,بضعة افراد من الشرطة وجارتنا سهى ولورا سكرتيرة أدريان،وقف الجميع أمامي بلحظة اندهاش ،كنت ما أزال بملابس السفر ولم أحلق لحيتي منذ غادرت بغداد ،

قادتني لورا الى الحمام في المرأة شاهدت وجهها،

قلت لها –أرجو أن تتركيني فأنا استطيع الإعتناء بنفسي

انسحبت بهدوء ، أغلقت الباب وتطلعت الى وجهي ،وجدت إن لحيتي النامية دونما انتظام تعطي انطباعا بارتباكي ،منذ كنت في أول شبابي كنت أرغب بلحية سوداء منتظمة ، وجدت إن ذلك غير ممكن بسبب تباعد الشعر على وجهي ،حينما خطر هذا ببالي شعرت إني أعود الى حالة الوعي ،

كان الشرطة ما يزالون وقوفا سهى ولورا جالستان ، اعتذرت من الجميع

قالت الشرطية – هل أنت بحالة جيدة ؟

نعم وشكرا ...ثانية أعتذر عما سببته لكم-

استأذن الشرطة وخرجوا ،قالت سهى –هل ترغب بالقهوة ؟

شكرتها ، قالت لورا –جاءك السيد ادريان في الثانية عشر وحينما لم ترد وهو يهم بالعودة جاءت جارتك

سهى-

نعم سهى ...وهي تفتح باب شقتها سألها ادريان عما اذا كان لديها أية معلومات - عنك ، أخبرته إنك جئت أول أمس ولكنك لم تخرج ، اتصل بي لأخبر الشرطة ، أنت تعلم إن فتح الباب يستلزم إجراءات رسمية ، جئت معهم، البقية تعرفها

في اليوم التالي ذهبت الى المكتب ،في الطريق كان كل شيء يجري كالمعتاد ، زحمة الطريق والمطر الذي لا ينقطع ، والترام الذي يجري مزدحما بركابه الى دوامهم ،والسائرون على الرصيف يثرثرون بعجالة ، والمخازن تفتح أبوابها ،

راجعت بعض المستندات واتصلت بفرعنا في دبي ،اتصل ادريان ، شرحت له ما حصل ،عدت الى الشقة ,شعرت إني لا يمكن أن أستقر بها ,قال أدريان ، لا مانع من انتقالك وفي تقديري إنك تتصرف بعقلانية

وهكذا انتقلت الى شقتي الجديدة ، غرفة نوم واحدة وصالة ، بعد الدوام أسترخي في البلكون أراقب الناس ،وأنشغل أحيانا بإنجاز الأعمال التي أجلبها معي ،لم أعد أسمي أدريان (كاري كرانت)